زكريا تامر

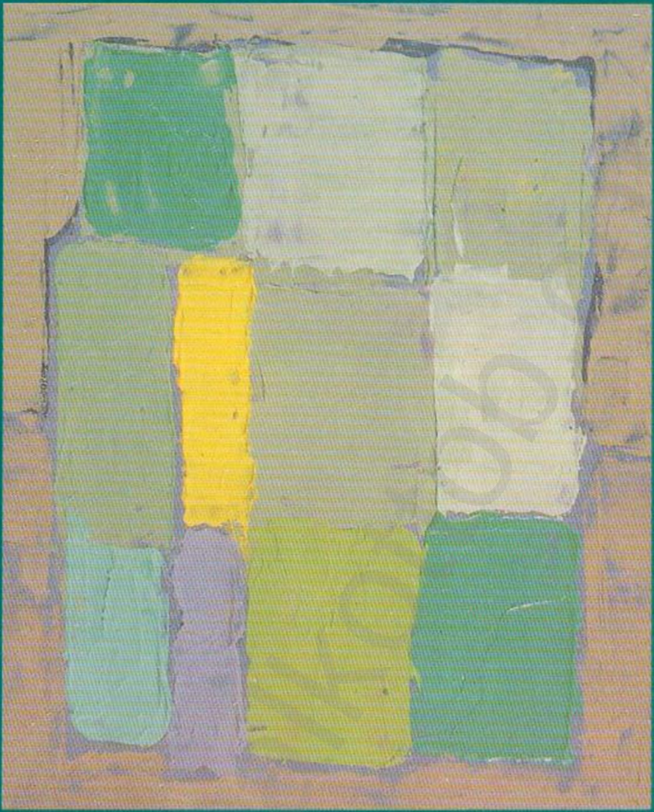

دمشق الحرائق

الأعمال

RIAD EL-RAYYES
BOOKS

www.alkottob.com

زكريا تامر

دمشق الحرائق

HAMDAN.B
29/03/2009

www.alkottob.com

www.alkottob.com

THE COLLECTED SHORT STORIES

DAMASCUS FIRE

BY

ZAKARIA TAMER

First Published in 1973
Second Edition Published in 1978
Third Edition Published in 1994
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
UNITED KINGDOM

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513-420-9

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: رشا السلطي
لوحة الغلاف: محمود حمّاد

الطبعة الأولى ١٩٧٣
الطبعة الثانية ١٩٧٨
الطبعة الثالثة ١٩٩٤
© رياض الريّس للكتب والنشر ش.م.م

www.alkottob.com

البستان ٩
الليل ١٩
يا أيها الكرز المنسي ٢٧
أقبل اليوم السابع ٣٧
الشجرة الخضراء ٤٥
التراب لنا وللطيور السماء ٥١
موت الياسمين ٥٩
الحب ٦٧
الطفل نائم ٧١
الرغيف اليابس ٧٧
الإعدام ٨٧
وجه القمر ٩٥
رجل غاضب ١٠٣
الخراف ١٠٩
الراية السوداء ١١٧
أرض صلبة صغيرة ١٢٧
موت الشعر الأسود ١٣٥

www.alkottob.com

الاستغاثة ١٤١
الحفرة ١٥١
حارة السعدي ١٥٩
الشنفرى ١٦٩
في الصحراء ١٧٥
شمس للصغار ١٨٥
البدوي ١٩٣
النار والماء ٢٣٧
العائلة ٢٤٩
حقل البنفسج ٢٥٥
رحيل إلى البحر ٢٦٣
امرأة وحيدة ٣١١
الطائر ٣٢١

www.alkottob.com

البستان

www.alkottob.com

www.alkottob.com

[redacted]

كانت سميحة في الأيام القديمة سمكة تحيا في البحار، ثم تحولت فيما بعد قطرة ماء في غيمة، ويوم التقى بها سليمان، كانت قد أمست امرأة جميلة، فعشق فمها ذا الشفتين الرقيقتين اللتين تهبان النار والموسيقى للهواء والضوء والماء.

وكان سليمان حين يقف أمام المرآة في غرفته، يحلو له الصياح بلهجة خطابية وقور: «أيها السادة.. فمها وطني».

وفي كل يوم يتجول وسميحة في الشوارع حيث الأبنية والأشجار، وعندئذٍ تصبح سميحة عينين طفلتين وصوتاً جائعاً.

تقول سميحة لسليمان: «أنظر أنظر إلى أوراق الأشجار».

-: «ما بها؟».

-: «لماذا ترتجف؟».

-: «ترتجف لأنها تحب بنتاً اسمها سميحة».

www.alkottob.com

.: «تخل عن النفاق. إنها ترتجف خائفة من الخريف».

ضحك سليمان ثم قال متسائلاً: «أتعرفين ماذا يحدث لو أمسكت الآن يدي؟».

.: «ماذا سيحدث؟».

.: «سأرتجف كأوراق الأشجار وأطير كالطيور».

فأمسكت سميحة يده وهي تقول: «أحب أن أشاهد رجلاً يطير».

فشدّ بأصابعه على يدها العصفور الوديع المرح.

قالت سميحة: «اترك يدي. ستخنقها».

.: «سأذبحها وأذبحك».

.: «اسكت، اسكت، فأنت تتكلم كجزار».

.: «أنا أسكت؟! يجب ان تحترمي من سيكون أباً لأولادك».

.: «هل أتكلم معك وأنا راكعة أذرف دمع الندم؟!».

.: «باستطاعتك الكلام وأنت واقفة، فأنا كما تعلمين متواضع».

.: «أعلم أعلم. وأنا أيضاً كما تعلم لا أحب سوى تواضعك».

.: «أتحبّين تواضعي فقط؟ سأنتقم منك انتقاماً لا ينسى. سيكون لنا مئة ولد. تصوري مئة ولد يحيطون بنا ويصيحون: ماما جميلة.. بابا متواضع».

.: «اسمع.. هل تريد ان أحبك حباً جنونياً؟».

www.alkottob.com

-: «لا أرفض».

-: «إذن اسكت».

-: «سأسكت ولن أتكلم».

واستمرا في السير متعانقي الأيدي صامتين مستسلمين لغبطة رقيقة عذبة، ولكنهما بعد حين توقفا أمام واجهة أحد المحال، ونظرا مبتسمين إلى سرير عريض.

قالت سميحة: «سرير جميل».

قال سليمان: «لا تتحرّشي بي، فلن أتكلم».

قالت سميحة: «ومن باس يدك وطلب منك التكلم؟!».

قال سليمان: «لن أتكلم وأقول انني أكره السرير العريض، وسريرنا سيكون ضيقاً وصغيراً».

وضغط على يدها، وأضاف بلهجة ماكرة: «ما أجمل السرير الصغير عندما ينام فوقه عاشقان!».

قالت سميحة: «لن تتوب عن الكلام البذيء. امش امش».

واستأنفا السير في الشوارع يغمرهما ضياء شمس موشكة على الغروب، وابتعدا رويداً رويداً عن المباني والناس، واقتربا من البساتين، وعندئذٍ قالت سميحة: «أنرجع؟».

قال سليمان: «تعبت؟».

قالت سميحة: «لست عجوزاً. أستطيع المشي حتى آخر الدنيا».

www.alkottob.com

فقال سليمان: «إذن سنمشي حتى آخر الدنيا».

وسلكا طريقاً ترابية تمتد على جانبيها بساتين خضر تحاول الاختباء خلف جدران واطئة من أغصان وطين جاف.

قالت سميحة: «لا شيء أجمل من بيت في بستان».

قال سليمان: «عندما نتزوج سنحيا في بستان».

ـ: «سنزرعه ورداً».

ـ: «سنزرع أيضاً خضروات وفواكه حتى لا نجوع إذا فقدت يوماً عملي».

ـ: «سأرتدي ثياب فلاحة وأمشي دائماً حافية القدمين».

ـ: «ستصيرين زوجاً لفلاح».

ووقفا مبهورين أمام باب كبير مفتوح يفضي إلى بستان مكتظ بالأشجار.

قال سليمان: «تعالي نتفرج».

ودخلا إلى البستان، وسارا وحيدين عبر عالم أخضر.

قالت سميحة وهي تستنشق الهواء بنهم: «ما أجمل هذا البستان!».

ورفعت ذراعيها إلى أعلى، وتمطّت، وقالت: «لكم أشتهي النوم على العشب».

قال سليمان وهو يبتسم: «ومن يمنعك؟!».

قالت سميحة: «أخاف على ثوبي أن يتّسخ».

قال سليمان: «الصابون رخيص الثمن».

www.alkottob.com

قالت سميحة بنزق مصطنع: «أتتحدّاني؟».

وقعدت على العشب بحركة مباغتة، وألصقت خدها بالأرض، فسألها سليمان: «ماذا تفعلين؟».

ـ: «إني أنصت».

ـ: «وماذا تسمعين؟».

ـ: «إنها تضحك. الأرض تضحك».

ـ: «أتضحك أم تبكي؟».

وانتظر متلهفاً سماع جوابها غير أن ضجيجاً خشناً حاداً انفجر في تلك اللحظة، فاستدار سليمان ليبصر أربعة رجال يهرولون نحوه، وكان أحد الرجال يحمل عصا يلوّح بها كسيف.

ونهضت سميحة بسرعة ووقفت بالقرب من سليمان شاحبة الوجه.

وتحلق الرجال الأربعة حولهما وجوهاً متجهمة ونظرات صارمة هازئة، وقال حامل العصا: «ماذا تفعلان هنا؟».

قال سليمان: «نتفرّج».

ضحك أحد الرجال، وقال: «أكنتما تتفرجان أم تصلِّيان؟».

قال حامل العصا مشيراً إلى سميحة: «من هذه؟».

قال سليمان: «خطيبتي».

فصاح رجل بصوت ساخر: «تشرفنا».

www.alkottob.com

وقال حامل العصا لسليمان: «أنت تكذب. لو كانت خطيبتك فعلاً لما أحضرتها إلى هنا».

صاح أحد الرجال مخاطباً حامل العصا: «لماذا اللّف والدوران؟ قل له ماذا نريد».

فقال حامل العصا لسليمان: «اسمع. كلنا شباب ونعرف لماذا أحضرتها إلى هنا. أحلف بشواربي انك لم تجد مكاناً تختلي فيه بها فأحضرتها إلى هنا».

قال سليمان: «ما هذا الكلام؟ عيب!».

قال حامل العصا: «لا داعي للزعل. سنتفق معاً. نحن سنقدم لك المكان. أنظر إليها. إنها تكفينا جميعاً».

استولى حنق شديد على سليمان، فدفع حامل العصا جانباً، ومشى نحو باب البستان بينما أصابع يده تقبض بعنف على يد سميحة، ولكن العصا ضربت رأسه ضربة قوية، فترنح وسقط على الأرض، فصرخت سميحة، وصرخت الأشجار، وصرخ العشب الأخضر، وصرخت سميحة من دون أن تستطيع التحول إلى قطرة ماء تحملها غيمة.

ولما أفاق سليمان من اغمائه، فتح عينيه بصعوبة ليبصر سميحة ممزقة الثياب ملقاة تحت رجل يلهث، فسارع إلى اغماض عينيه خاضعاً لرعب بارد مرتجف، واشتد التصاقه بالعشب، وأنصت لنحيب ينبثق من جوف الأرض مرّاً ممتزجاً بلهاث حيوانات تفتش عن ماء.

www.alkottob.com

وكانت الشمس في تلك اللحظة حمراء تجنح للأفول، فالليل الأسود آت...

www.alkottob.com

الليل

www.alkottob.com

www.alkottob.com

فُتح باب الغرفة ببطء، ودلف إلى الداخل رجل طويل القامة، وأغلق الباب خلفه بحذر بالغ، وحملق في أرجاء الغرفة التي يضيئها نور أصفر ضعيف منبعث من مصباح كهربائي صغير، فأبصر فراشاً على الأرض نامت فوقه امرأة وطفل.

ظل الرجل واقفاً مدة لحظات متحفزاً مترقباً، ثم مشى دونما صوت نحو خزانة خشبية تقبع لصق الحائط، وفتح بابها ليجد ملابس متدلية، فأغلق الباب، وفتح أدراج الخزانة، فإذا بها مملوءة بثياب مطوية، فبعثرها مفتشاً حتى اصطدمت أصابعه النزقة بصُرة صغيرة صلبة، فبادر إلى فكها بيدين متلهفتين، فعثر فيها على صورة لرجل كثّ الشاربين يرتدي شروالاً ويضع يده على كتف امرأة تجلس على كرسي وتبتسم بحياء.

رمى الرجل الصورة على الأرض بحركة ساخطة، وعندئذٍ سيطرت عليه رغبة قوية في السعال، فحاول كبتها، فلم يوفق، وانفجر سعاله حاداً خشناً متواصلاً،

www.alkottob.com

فاستفاقت المرأة من نومها مذعورة، فهرع الرجل نحوها، وأطبق بكفه على فمها، بينما كانت يده الثانية تستلّ خنجراً أبيض النصل، وهمس بصوت متهدج أجش: «لا تصيحي وإلاّ ذبحتك».

وشاهد رعباً طاغياً في عيني المرأة المفتوحتين إلى أقصاهما، فاطمأن، وأبعد يده عن فمها وهو يقول: «ان كنت تريدين ان تموتي فهيا اصرخي».

بكت المرأة، فقال الرجل بخشونة وبلهجة آمرة: «ماذا حكيت؟ اسكتي. لا أريد البكاء».

مسحت المرأة دموعها بأصابعها، وقالت بصوت متقطع: «ماذا تريد؟ ومن أنت؟».

ـ: «أريد الخمسمئة ليرة».

ـ: «نحن ناس فقراء».

ـ: «لا تكذبي. زوجك اليوم قبض خمسمئة ليرة تعويضاً من معلمه القديم الذي طرده من العمل، فأين هي؟».

ـ: «لا أعرف».

فلكزها بمقبض الخنجر قائلاً بشراسة: «الخمسمئة ليرة مخبأة في البيت. هيا تكلمي».

فعاودت المرأة الانتحاب، وغمغت قائلة: «أنا والله لم أكذب».

ـ: «أين هي؟».

www.alkottob.com

ـ: «مع زوجي يحملها في جيبه».

ـ: «أخذها الكلب معه إلى الفرن».

فبدت الدهشة على وجه المرأة، فقال الرجل مزهواً: «ما بك؟ أنا أعرف ان زوجك يشتغل في الليل في الفرن ولا يرجع إلى البيت إلاّ بعد شروق الشمس».

تململ الطفل في تلك اللحظة، وبكى بصوت مرتفع، فاستاء الرجل، وقال: «أسكتيه».

فحملت المرأة طفلها، وضمته إلى صدرها، وراحت تهزه مربتة بيدها على ظهره غير أنه استمر في البكاء، فقال الرجل بحنق: «ماذا قلت؟ اسكتي ذلك القرد».

فأخرجت المرأة ثديها من فرجة الثوب بحركة مرتبكة مضطربة، ودسّت حلمته في فم الطفل الذي كفَّ تواً عن البكاء والصياح.

قال الرجل متسائلا: «أنت تعرفينني؟!».

ـ: «لا أعرفك».

ـ: «أنت تكذبين».

ـ: «أنت تجلس دائماً في مقهى الحارة».

وتأمل ملياً لحم صدرها الأبيض، وأحس بالتعب يغمره، وظل صامتاً حتى انتهت المرأة من إرضاع طفلها ومددته على الفراش، وحينئذٍ قال الرجل: «اسمعي يا امرأة. إذا ذهبت الآن بلا مشاكل، فهل ستخبرين زوجك بما حدث؟».

www.alkottob.com

:- «لن أخبر أحداً».

:- «رجعتِ إلى الكذب».

:- «ليمت ابني إذا كنت أكذب».

:- «كم عمره؟».

:- «خمسة أشهر وسبعة أيام».

:- «أتحبينه؟».

:- «من لا يحب ولده؟!».

وحدق إليها، فبدت لعينيه جميلة، شعرها أسود متناثر على كتفيها، فتنهد بأسى واعياء، وترك خنجره يسقط على الأرض، واستلقى فجأة على الفراش، وشد المرأة إليه محاولاً تطويقها بذراعيه، فندت عنها شهقة ذعر، وصاحت: «اتركني».

:- «لن يعلم أحد بما سيجري».

:- «أنا امرأة متزوجة».

فقال الرجل بصوت غاضب شرس: «والله إذا لم تطيعيني فستندمين. سأذبح ابنك أمام عينيك وأذبحك. أنا لا أمزح».

كفّت المرأة عن المقاومة، واستكانت بين ذراعيه لحماً مرتعداً، فأحس بالزهو، وقال: «أستطيع الآن أن أفعل بك ما أشاء».

:- «سينتقم الله منك».

:- «ولماذا؟ لم أهدم سد مأرب!».

www.alkottob.com

وهمّ ان يضحك ساخراً، ولكن المرأة أجهشت بالبكاء، فقال لها بصرامة: «ألم تسمعي ما قلت؟ أنا أكره البكاء».

لم تذعن المرأة لرغبته انما اشتد بكاؤها، وألفى يديه مرغمتين علي التخلي عن جسدها، فقال لها بغيظ: «هيا افرحي. ها أنا ابتعد عنك».

وانتظر حتى كفَّت المرأة عن النحيب واستعادت هدوءها، وعندئذٍ قال لها بصوت هازىء ووجهه قريب من وجهها المبتل بالدموع: «الله الله. ما أسخى دموعك. ذكّرتني بأختي يوم كانت صغيرة. كنت لا أجرؤ على التنفس أمامها. ولحظة أعبس أو أقول كلمة قاسية ينزل من عينيها سيل دموع».

أغمضت المرأة عينيها دونما كلمة، وهيمن الصمت حيناً من الوقت ثم همس الرجل: «نمتِ؟».

ففتحت المرأة عينيها حالاً، فأردف الرجل متسائلاً: «اتفقنا؟ سأذهب الآن ولن تخبري زوجك بما حدث».

خيّل إلى الرجل ان المرأة ابتسمت وهمست قائلة: «أنت رجل طيب».

-: «ماذا سيفعل زوجك بالخمسمئة ليرة؟».

-: «سنخبئها ليوم أسود، فقد يمرض أو لا يجد عملاً».

-: «أهلك فقراء؟».

-: «فقراء».

-: «كيف قبلوا بزواجك من فقير؟».

www.alkottob.com

ـ: «أنت متزوج؟».

فاسترخى الرجل على الفراش خاضعاً لطمأنينة غريبة، وقال: «كدت أتزوج. أهلها لم يوافقوا لأني فقير. مسكينة. قالت لي: اخطفني. كنت حماراً. لا، لا. لم أكن حماراً. كنت مفلساً لا أملك سوى ثيابي».

آخ يا زمان. آخ يا دنيا يا خائنة .

واستأنف الرجل كلامه قائلا: «الموت أفضل من حياة الفقير».

ابتسمت المرأة.

ما أجمل ابتسامتها، كشمس تبزغ في ليل أسود.

وأغمض الرجل عينيه. آخ أخ. جميلة البنت مثل القمر. وفي كل يوم تزور أمه المريضة، فينتظرها في الدهليز المظلم الموصل إلى البيت. وحين تبغي الخروج يحتضنها ويبوسها، فترتجف كالعصفورة ساعة الذبح. آخ يا زمان آخ. بخيل أنت يا زمان وقلبك حجر صوان.

واستسلم الرجل شيئاً فشيئاً للنوم، ولكنه صحا على حين غرة على ضجيج صارم، ففتح عينيه ليباغت بوجوه تطل من أعلى مقطبة قاتمة.

ولطم بطنه حذاء ثقيل، وتعالى صوت قاس: «قم يا كلب».

فأطاع الرجل، ونهض واقفاً، فانقضَّ عليه رجال الشرطة، وكبَّلوا يديه بقيد حديدي، وصفعه واحد منهم صفعة قوية، فلم يأبه لما حدث إنما ظلت عيناه تحدقان إلى المرأة.

www.alkottob.com

يا أيها
الكرز المنسي

www.alkottob.com

www.alkottob.com

شهقت ضيعتنا مدهوشة لما علمت ان عمر القاسم قد صار وزيراً. وها هي ضيعتنا يا عمر كما تركتها وردة من طين وعشباً أصفر ونهراً من الأطفال الحفاة.

وارتبك عمر قليلاً، ولكنه قال لأمه: «لا داعي للبكاء. لست ذاهباً إلى المشنقة».

فمسحت أمه دموعها بأصابعها، وقالت بصوت مرتعش: «ليس لي غيرك في الدنيا. احرص على صحتك يا ابني، فالقرى كلها أمراض وأوساخ. مسكين أنت. لو كان لك قريب مهم لما عينت معلماً في قرية».

فقال لها عمر بلهجة مرحة: «اطمئني يا أمي اطمئني، فابنك ليس زجاجاً سهل الكسر».

وعمَّ ضيعتنا الفرح، ورحبت بحرارة بذلك النبأ الذي أذاعه الراديو. إذن عمر القاسم صار وزيراً، فسبحان من يعطي دون أن يسأل، وصدق من قال إن من جدّ وجد.

«ماذا يشتغل الوزير؟».

www.alkottob.com

«تخصص له سيارة أحلى من أجمل بنت».

«ويقبض في آخر كل شهر معاشاً يتيح له ان يأكل خروفاً في كل يوم».

«وعندما يدخل إلى مبنى وزارته يرتجف الموظفون خوفاً ويسلمون عليه كأنه عيسى النازل من السماء».

«ويأمر فيطاع. يقول للمطر انزل فينزل».

«وإذا أمر الآغا فهل يطيع الآغا؟».

وحدق أهل الضيعة بوجوم وفضول إلى شاب نزل من الباص الآتي من دمشق. كان شاباً مرفوع الرأس، ذا عينين وديعتين وصارمتين في آن واحد. سلّم علينا كأنه واحد من أهلنا غاب عنا زمناً ثم عاد. قال لنا إن اسمه عمر القاسم وهو معلم المدرسة الجديد.

وقال واحد من أهل الضيعة: «يجب ان نذهب إلى دمشق لتهنئته».

قال آخر بحماسة: «سنذهب كلنا.. الرجال والنساء والصغار».

وقال ثالث: «ستذهب أيضاً الأبقار والخراف والدجاج والأرانب».

قال رابع: «الفكرة عظيمة ولكن من سيدفع أجرة الباص؟ هل نذهب سيراً على الأقدام؟».

ران الصمت حيناً ثم قال رجل عجوز: «يكفي ان يذهب واحد منا ويهنئه باسم الضيعة. هو يعرف حالنا ولن يعتب علينا».

www.alkottob.com

«ولكن من سيذهب؟».

قال العجوز: «اختاروا من تشاؤون. فليذهب مثلاً أبو فيّاض».

فحاول أبو فياض الرفض غير أن أصواتنا حاصرته قائلة:

«أنت أعقلنا».

«وأكبرنا سنّاً وقدراً».

«وأنت تتقن الكلام حتى مع الملوك».

«كان عمر يحبّك».

«دائماً كان يشرب الشاي عندك».

«كان يحب حديثك».

«كان صديقك».

قال أبو فياض: «ولكن عمر كان أيضاً صديقكم وكان يحبكم. أنسيتم؟».

ونظر عمر بحب إلى الأولاد المتسمرين على المقاعد وقال لهم: «أنا معلمكم الجديد. اسمي عمر... عمر القاسم. إني أحب المجتهدين. أما الكسالى فمن الأفضل لهم ان يتخلوا عن كسلهم وإلاّ...».

ورفع رجل أشيب طفله الصغير إلى أعلى بحركة فخور، وقال: «سأسميه عمر كاسم جده».

ونظر إلى الأم الشاحبة الوجه المستلقية على الفراش، وضحك، وقال لها: «لو كان يعرف ما ينتظره لرفض المجيء، ويوم أموت لن يرث سوى ثيابي».

www.alkottob.com

وقلنا لأبي فياض: «لا فائدة في التهرب. ستذهب إلى دمشق وتقابل عمر وتهنئه».

فهزّ أبو فياض رأسه موافقاً مستسلماً.

وقال مختار الضيعة لعمر: «يا استاذ.. حتى الآن لم تذهب لزيارة الآغا».

قال عمر: «لماذا أذهب ما دمت لا أعرفه وهو لا يعرفني؟».

قال المختار: «اللباقة ضرورية، والآغا سينفعك، فكل ما تراه عينك من أراض في الضيعة هي ملكه».

قال عمر: «أبي وأمي لم يعلّماني اللبّاقة، وعملي في الضيعة ان أعلّم الصغار القراءة والكتابة».

وقال أهل الضيعة لأبي فياض: «قل لعمر إننا ما زلنا جياعاً».

«قل له إن جوعنا ازداد».

«بتنا نأكل حتى الحصى».

«حدثه عن القمل الذي يأكلنا».

«وعن اللحم الذي نسينا طعمه».

«حدّثه عن أمراضنا».

«قل له إننا بحاجة إلى أطباء وأدوية».

«ضيعتنا بحاجة إلى ماء نظيف للشرب».

«حدّثه عن شوقنا إلى نور الكهرباء».

«كلّمه عن الآغا وأفعاله».

www.alkottob.com

«نحن نشتغل وهو يحصد».

وقال رئيس مخفر الشرطة لعمر: «اني والله يا استاذ أعتبرك كأخي تماماً، وسأنصحك نصيحة، أنت حر، إن شئت اعمل بها أو ارمها وراء ظهرك. أنت دائم السهر مع فلاحي الضيعة ولا يليق بأستاذ مثلك ان يسهر معهم. معلم المدرسة شخصية محترمة».

قال عمر: «فلاحو الضيعة ناس طيبون».

قال رئيس المخفر: «وأنت تكلمهم كلاماً إذا سمعه الآغا فسيزعل، وإذا زعل الآغا، فالله يعلم ما يحدث».

وصاح شاب من شبان الضيعة: «اسمعوا.. من المناسب ان يأخذ أبو فياض معه هدية لعمر».

فتعالت أصواتنا مؤيدة، ولكن أيَّ هدية نختار؟

«خروف أو عدة دجاجات».

«هذه هدية لا تليق بوزير».

«إذن أيَّ هدية نرسل؟!».

قال أبو فياض: «أفضل هدية هي سلة من كرز ضيعتنا. أتذكرون كم كان عمر يحب كرز ضيعتنا ويقول عن لونه الأحمر إنه تعبنا ودمنا».

فأثنينا جميعاً على رأي أبي فياض.

وقال لنا عمر: «الظلم لا يدوم».

وقال لنا: «كيف تقبلون بحياة الذل؟».

فقلنا له: «العين بصيرة واليد قصيرة».

www.alkottob.com

فقال عمر بصوت غاضب: «اليد قصيرة لأن القلب خائف».

وأقبل ليل أبيض، واستسلمت الضيعة للنوم، وكنا نحن الفقراء جسداً واحداً مرتجفاً مبتهجاً ينادي أيام كنا نتصنت لكلام عمر مبهورين فكأنه عاش أمداً في قلوبنا وقلوب موتانا.

وعندما أشرقت شمس الصباح على الضيعة تجمّع الرجال والصغار والنساء حول الباص المسافر إلى دمشق.

وقال لنا عمر قبل ان يصعد إلى الباص: «الآغا صاحب نفوذ وجاه في دمشق، وهو الذي نقلني من ضيعتكم لأني لم أصبح خادماً له ولأني أحبكم، ولكن اليوم الذي تتخلصون فيه من ذلك الآغا وأمثاله ليس بالبعيد بل هو قريب، وسترونه أنتم لا أحفادكم، وستصبح الأرض التي تشتغلون فيها ملكاً لكم».

وركب أبو فياض الباص وبرفقته سلة ملأى بالكرز الأحمر ذي الحبات الناضجة البراقة.

ولما أوشكت شمس الضيعة أن تأفل، بلغ سمعنا بوق الباص العائد من دمشق، فتراكضنا إلى ساحة الضيعة.

أتى الباص، ونزل منه أبو فياض عابس الوجه، واجماً، وكانت إحدى يديه ما زالت تحمل سلة الكرز.

تصايحنا بدهشة:

«لماذا لم تعط عمر سلة الكرز؟».

«ألم تقابله؟».

www.alkottob.com

«ماذا قال لك؟».

ظل أبو فياض ساكتاً كأنه أصمّ، ووضع سلة الكرز على الأرض، وتكلم بصوت أجش، فقال للصغار: «تعالوا وكلوا الكرز، وعندما تكبرون لا تنسوا طعمه».

ثم مشى متجهاً إلى بيته، فاعترضنا طريقه، وقلنا له: «تكلم، وأخبرنا بما حدث».

قال أبو فياض: «عمر مات».

فزعلنا كأن أمنا قد ماتت بينما عاود أبو فياض السير وقد ازداد ظهره انحناء.

www.alkottob.com

أقبل
اليوم السابع

www.alkottob.com

www.alkottob.com

[redacted]

جنحت للأفول شمس غاضبة كانت تطلق صراخاً أبحّ في شرايين رجل وامرأة، هربا من ضجيج المدن، وانزويا وحيدين طوال ستة أيام في غرفة لها باب واحد ونوافذ عديدة مطلة على باحة البيت. وحطّ غراب في اليوم السابع على غصن أخضر من أغصان شجرة النارنج المزروعة في باحة البيت، ونعب طويلاً، فارتجفت المرأة، والتصقت بالرجل دونما كلمة.

وكان اخضرار شجرة النارنج موشّى بالثمار الناضجة ذات اللون القرمزي. ولمس الرجل شعر المرأة بيدين سعيدتين وبائستين في آن واحد. وكان فم المرأة عنباً فجاً أحمر، ولنهديها رائحة نبات بري. وكانت الأرض آنئذٍ صغيرة بحيث تستطيع احتضانها يدا طفل.

ونعب الغراب ثانية، فتثاءب الرجل بتكاسل بينما كانت عينا المرأة في تلك اللحظة متسولتين بلا أطفال، تطرقان الأبواب المقفلة، وتناديان أطفال الآخرين بمذلة.

وانتاب الرجل خوف غامض، وحاول تجاهل المرأة،

www.alkottob.com

فتخيّل سحباً من الجراد لم تجد ما تأكله على وجه الأرض، فبدأت تلتهم الأرض نفسها غير ان عيني المرأة استمرتا تلاحقانه بندائهما الضارع الذليل، فاضطر الرجل إلى ان يتخلى عن خموله، وصنع من الطين طفلاً وسيم القسمات، وقدمه إلى المرأة متوجساً.

وصاح الطفل باكياً لحظة انزلقت حلمة ثدي المرأة بين شفتيه المنفرجتين، وتحركت ذراعاه وساقاه، واكتسى لحماً أبيض مغطى بزغب أشقر، فاشتدت بهجة المرأة، وضمت الطفل إلى صدرها، وناغته بصوت مفعم بالحنان، فأدرك الرجل أنه لم يعد لديه ما يفعله، ودلف إلى إحدى غرف البيت، وأغلق بابها بإحكام، وأسدل الستائر على النوافذ طارداً ضوء النهار، ووقف أمام المرآة، وحين أوشك ان يضرب حنجرته بمدية مثلومة الحد، اجتاحه شوق عارم مباغت إلى رؤية الأرض والبشر لآخر مرة، وخضع لرغبة ضارية في تحدي شيء ما فظ مختبىء في غور العالم، فأفلتت أصابعه المدية، وقال لنفسه بكثير من الاكتئاب: يجب ان أقاتل.

وغادر البيت، وتحول متشرداً يذرع الأرض. وتعاقبت عليه الأيام، وفي اليوم السابع بلغ مدينة حجرية المباني. وكان ناسها جميعاً من خشب، وكان الصيف من خشب، وكانت الجياد والرماح والمرايا والورد من خشب، وكانت المحطات فارغة مهجورة، والقطارات محطمة في أمكنة قصيّة.

ونعب الغراب. وتجول الرجل حزيناً في طرقات المدينة

www.alkottob.com

الصامتة بينما كان الغراب يتبعه بإصرار. وذهل الرجل عندما شاهد بغتة فتاة في مقتبل العمر تقترب منه، ولم تكن من خشب. وكانت جميلة وفتية. وقد خاطبته بإلفة كأنه صديق قديم: «يجب ان تنقذ هؤلاء الناس».

وأشارت بيدها إلى رجال ونساء وأطفال من خشب، فقال الرجل متسائلاً: «كيف صاروا خشباً؟».

فابتسمت الفتاة بغموض، وقالت: «هناك امرأة لا تحب أحداً، وقد حوّل حقدها الناس خشباً. إذا قتلت تلك المرأة عاد الناس أحياء».

-: «أين هي؟».

فقالت الفتاة وهي تشير بيدها نحو باب بيت مفتوح: «ستجدها هناك».

ودهش الرجل إذ لم يكن للبيت مظهر شرير.

ونعب الغراب. وقال الرجل بحيرة: «كيف أقتلها؟».

-: «ستجد في باحة البيت سيفاً معلقاً على الجدار. وهذا السيف وحده القادر على قتلها. احذر أن تبصر وجهها. سيسحرك حقدها ويحوّلك خشباً. اطعنها من الخلف».

واستأنفت الفتاة سيرها. وحين همّ الرجل بمناداتها، كانت قد اختفت في طريق فرعية، وبقي وحيداً بين رجال ونساء وأطفال من خشب، متسمِّرين من دون حراك.

وحوّم الغراب، وأحس الرجل بالخوف والتعب يهيمنان عليه، ولكن رغبته في رؤية وجه الأرض وبشرها وهبته قوة

www.alkottob.com

مبهمة، وتدفقت في دمه صرخة انسان غامض يتحدّى عدواً لا يبصر وجهه.

وتقدم إلى الأمام، ودلف إلى داخل البيت الذي كان صامتاً، ووجد السيف معلقاً على الجدار، وكان صدئاً، عتيقاً، مقوّس النصل. والتفّت أصابعه حول مقبضه، وانتابه قليل من الجزع، غير انه قال لنفسه: يجب ان أقاتل.

وبحث عن المرأة الحقود في عديد من الغرف، وعثر عليها في آخر غرفة وطأتها قدماه. وكانت تقف قرب النافذة تتطلع إلى شوارع المدينة بينما أدارت ظهرها لباب الغرفة.

ونعب الغراب. وتردد الرجل، وخيّل إليه ان قدميه من حديد، وان البشر المتحولين خشباً يحاولون الصراخ من حناجر خشبية ليحثوه على التقدم، فتمسكت أصابعه بمقبض السيف، وتقدم إلى الأمام بحذر ورهبة.

وكان يعرف انه رجل هالك عما قريب، ولن يكون له وقتئذٍ صوت ليبوح لامرأة ما بكلمات مرتجفة.

ودفع السيف في ظهر المرأة بقوة، فغاص حتى المقبض، وتراجع الرجل إلى الوراء بينما السيف يقطر دماً. وانهارت المرأة إلى الأرض مرتمية على ظهرها.

ونعب الغراب. واقترب الرجل من جثة المرأة الهامدة، وفوجىء بأن المرأة لم تكن سوى الفتاة الوديعة التي قابلها قبل قليل في شوارع المدينة. وكانت عيناها مغمضتين، ووجهها ترين عليه طمأنينة وفرح باهر.

www.alkottob.com

ونعب الغراب. وظل الرجل ردحاً من الوقت يتأمل وجه الفتاة الجميل. وأدرك انه سيظل حتى الموت أسيراً له غير أن هدير ناس المدينة أنقذه، فقد عادوا أحياء، يصخبون ويضحكون ويتبادلون الكلمات.

ومشى الرجل في الشوارع بينما دهمه حنين جارف إلى الصمت الذي كان مهيمناً من قبل على مدينة ناسها من خشب. ولم يأبه له أحد، ولم تمتد يد لمصافحته بحرارة، ولم يضحك وجه لرؤيته، ولم تقل له فتاة: «مرحبا».

وافترسته وحشة شرسة، فغادر المدينة الغارقة في أفراحها، وتعاقب عليه العديد من الأيام، ووصل إلى بيته في اليوم السابع، فوجد المرأة لا تزال تهدهد الطفل الذي كان يبكي، ولم تأبه لرجوعه.

ودلف إلى غرفة من الغرف، وأمسك بالمدية، ولم يكن لديه ما يفعله في تلك اللحظة، فقد كانت أجمل القصائد مكتوبة، والأفكار كلها قد صيغت في كلمات وطبعت في كتب، وثمة آلاف الدكاكين تبيع اسطوانات معبأة فيها الموسيقى والأغنيات، وهناك الكثير من الأيدي مستعدة لأن تبني شيئاً ما، ولم يكن ثمة حاجة إلى رجل متعب. وتذكّر ما فعله، فرأى انه كان أمراً حسناً.

وضرب الرجل حنجرته بالمدية بحركة حاقدة، فتهدل رأسه فوراً إلى الأمام، ثم سقط الرجل على ظهره، وأنصت لأصوات الدم المتدفق بإيقاع رتيب من جرح عنقه، وتناهى إليه بكاء الطفل ثم خفت النحيب شيئاً فشيئاً.

www.alkottob.com

وكان الغراب لا يزال جاثماً على غصن شجرة النارنج، وقد نعب نعيباً خفيفاً ثم هوى إلى أسفل.

www.alkottob.com

الشجرة الخضراء

www.alkottob.com

[redacted]

وقفت الطفلة بالقرب من صخرة، وبكت، فتفتتت الصخرة، وانبثق منها طفل أسود الشعر، فكفَّت الطفلة عن البكاء، ومسحت عينيها بأصابعها، وقالت للطفل بدهشة وخوف: «من أنت؟».

قال الطفل: «اسمي طلال، فما هو اسمك؟».

قالت الطفلة: «اسمي رندا».

قال طلال متسائلاً: «ولماذا كنتِ تبكين؟».

قالت رندا: «ضربتني أمي».

-: «ولماذا ضربتك؟»

-: «لأني كنت أبكي».

-: «ولماذا كنت تبكين؟».

-: «كنت أريد من أمي ان تشتري لي ثوباً أحمر».

-: «ولماذا لم تشتر لك ثوباً أحمر؟».

-: «قالت لي أمي ان شراء الخبز أكثر أهمية من شراء ثوب أحمر».

www.alkottob.com

www.alkottob.com

وهمّت رندا بالعودة إلى البكاء، فسارع طلال يقول لها: «اني أحب اللعب، فهل تلعبين معي؟».

هزّت رندا رأسها موافقة، ولعب الاثنان بمرح. قلّدت رندا عصفوراً صغيراً لم يتقن الغناء بعد، وصاح طلال مقلداً نعيب غراب.

وقالت رندا لطلال وهي تشير إلى السماء: «أنظر إلى هذه الغيمة البيضاء ما أجملها!».

ـ: «انها ليست غيمة».

ـ: «إذا لم تكن غيمة، فماذا تكون؟».

ـ: «انها طير أبيض كبير».

ـ: «ولكنني لا أبصر جناحيه».

ـ: «انه يطير بمحرك».

ضحكت رندا ساخرة، وقالت له: «أنت أبله!».

تجهم وجه طلال، فقالت له رندا: «زعلت؟ كنت أمزح. أتستطيع أن تركض أسرع مني؟»

وانطلق الاثنان يركضان ضاحكين حول شجرة خضراء. ولما تعبا قعدا على الأرض تحت أغصان الشجرة الخضراء.

قالت رندا: «أنا الآن ملكة».

قال طلال: «وأنا الآن قائد جيوش الملكة».

ـ: «اهجم بجيوشك على الأعداء».

www.alkottob.com

ـ: «هجمت جيوشي على الأعداء وانتصرت عليهم، وها هم آلاف الأسرى أذلاء يركعون أمامك».

ـ: «اني أعفو عنهم، وآمر بإعادتهم إلى بيوتهم وأولادهم».

قال طلال: «أنا الآن شحاذ».

قالت رندا: «وأنا الآن غنية أملك أربعين جرّة مملوءة بالذهب».

ـ: «الشحاذ يطرق باب قصر البنت الغنية مستجدياً رغيف خبز».

ـ: «البنت الغنية لا تعطي الشحاذ رغيفاً بل ستعطيه جرّة ذهب».

ـ: «جرّة واحدة فقط؟!».

ـ: «اعلم أيها الشحاذ الطمّاع ان الطمع ضرّ ما نفع».

فضحك طلال بينما قالت له رندا: «أنت الآن لص».

قال طلال: «أنا الآن لص ورجال الشرطة يطاردونني ويطلقون النار عليَّ وأنقل إلى المستشفى».

ـ: «وهناك في المستشفى تموت».

قال طلال: «لا أريد ان أموت».

قالت رندا: «بل ستموت وأزور قبرك وأضع عليه وردة بيضاء».

قال طلال: «ماذا ستفعلين لو كنت وردة؟».

www.alkottob.com

ـ: «سأنبت فوق قمة جبل لا يستطيع بلوغها أي انسان».

ـ: «ما الفائدة في وردة لا يراها أحد؟».

قالت رندا: «ومن قال لك ان لا أحد سيراني. ستراني السماء الزرقاء والغيوم والأمطار والنجوم والشمس والقمر، وستراني النسور».

وصمت طلال ورندا لحظة أبصرا رجالاً مسلحين ببنادق يقتربون منهما وهم يدقون الأرض بأحذيتهم الثقيلة.

طلب واحد من الرجال من طلال ورندا الابتعاد عن الشجرة الخضراء، فأطاعا، ووقفا على مبعدة يسيرة، يحدقان بذعرٍ إلى الرجال الذين كانوا يوثقون بالشجرة الخضراء رجلاً ذا ثياب ممزقة ووجه دام، ثم وقفوا قبالته مشدودي القامات، وسددوا بنادقهم إليه، وأطلقوا النار عليه دفعة واحدة، فاخترق الرصاص الرجل والشجرة وسقطا معاً إلى الأرض، فبكت رندا بينما كان الرجال يسيرون مبتعدين بخطى رتيبة، ثم اندفعت نحو طلال، وألصقت رأسها بصدره، فلفّ ذراعيه حولها، وضمها إليه، فباتا مخلوقاً واحداً يرتجف راغباً في الفرار، ثم ما لبثا أن تحولا صخرة.

www.alkottob.com

التراب لنا
وللطيور السماء

www.alkottob.com

حكي عن دمشق أنها كانت في قديم الزمان سيفاً أرغم على العيش سجيناً في غمده، وكانت طفلة تثقل الأصفاد خطوتها، وكان ياسمينها ينبت خفية في المقابر مرتدياً أكثر الثياب حلكة، فلما علم أعداؤها بأحوالها، سارت إليها جيوشهم، وبنت حول أسوارها سوراً من قتلة لا يعرفون النوم، فعمّ دمشق الذعر والارتباك والسخط، وتراكض أهلها، وتحلقوا حول قصر ملكهم صراخاً مضطرباً مستغيثاً، فأطلّ عليهم الملك من شرفة قصره، وقال لهم بصوت صارم: «كفّوا عن الصياح. ما هذا الزعيق والنعيق؟ هل نسيتم ان الوطن في خطر؟ ماذا تريدون؟».

فتصايح الناس: «نريد سلاحاً».

فقال الملك بنزق: «وماذا ستفعلون بالسلاح؟ هل تبغون استخدامه في مشاجراتكم؟».

«نريد أن نحارب».

«سنحارب».

www.alkottob.com

«سندافع عن وطننا».

فقال الملك: «الحرب هي مهنة الجندي، فاتركوا شؤون الحرب لأهل الحرب، ولا تنسوا ان أسوارنا منيعة، ولسوف تحمينا من الأعداء وتحبط مكائدهم، فعودوا إلى بيوتكم ودكاكينكم، واسعوا وراء رزقكم، أما الذين يثيرون الفتن وينشرون الأقاويل والأكاذيب، فهم عملاء للأعداء، ولن يفلتوا من القصاص، وجيشكم الباسل سيؤدي واجبه ويسحق الأعداء وأذنابهم ويلقنهم درساً لن ينسى».

فصفّق بحماسة واعجاب جنود الملك وأعوانه وحكماؤه ووزراؤه، وظل الناس متجمدين في أمكنتهم يسيطر عليهم الوجوم والكآبة والحنق، وما إن غادر الملك الشرفة عائداً إلى داخل القصر حتى عادوا يصيحون: «نريد سلاحاً... نريد سلاحاً».

فانقضّ عليهم جنود الملك شاهري السيوف، فقتل من قتل، واعتقل من اعتقل، وهرب من هرب.

ولما ساد الهدوء، سمح الملك لرجل عجوز بالمثول أمامه، وقال له: «يقال إنك اخترعت سلاحاً قادراً على انقاذ دمشق من أعدائها، فهل ما قيل صحيح؟».

قال العجوز: «أنا يا مولاي قد وهبت عمري كله للعلم. ولأن دمشق مدينتي التي لا أحب سواها هي اليوم مهددة بالاحتلال والدمار، فقد اخترعت سلاحاً سيهزم الأعداء شرَّ هزيمة».

قال الملك بفضول: «وما هو هذا السلاح؟ تكلم».

www.alkottob.com

قال العجوز العالم: «سلاحي اسمه الطائرة، والطائرة مركبة مجوفة مصنوعة من المعدن، لها جناحان، وتطير في الجو كما يطير النسر، ويستطيع الجندي الركوب فيها والتحليق بها فوق الأعداء ليقذفهم بما يهلكهم دون ان يمسه أي أذى».

قال الملك: «وكم تريد ثمناً لسلاحك؟».

قال العالم: «سلاحي لا مثيل له ولا يقدر بثمن».

فعبس الملك، وقال بصوت فظ: «قل ما تبغي دون لفّ أو دوران، فأنا أعرف جيداً الذين يمثلون أمامي، فهم لا يفكرون إلاّ في السطو على خزائني».

قال العالم: «أنا لا أريد مالاً».

قال الملك متسائلاً بغيظ: «إذن ماذا تريد؟ أتريد تاجي؟».

قال العالم: «اني أقدم سلاحي دون ثمن، وكل ما أريد هو إن أنقذ دمشق من أعدائها».

فضحك الملك بغبطة، وقال لوزرائه وحكمائه وأعوانه المحيطين به: «ماذا تقولون في ما سمعتم؟».

فبادر رجل ذو لحية طويلة إلى الكلام، فقال بصوت متهدِّج: «كفر والحاد ان يقلد الانسان ما خلق الله وان يخالف مشيئته. الطير يطير لأن الله خلقه كي يطير ووهبه جناحين، أما الانسان فيجب ألا يطير. السماوات للملائكة والطيور. والله خلق الانسان ليمشي على الأرض، ويجب

www.alkottob.com

ان يظل حتى يوم القيامة يمشي على الأرض، ولو أراد الله ان يبلغ الانسان السماوات لمنحه جناحين».

وأشار الرجل الملتحي بسبابة مرتجفة حانقة نحو العالم، وقال: «هذا ليس عالماً. إنه ابليس متنكر، يريد إغواءنا وإبعادنا عن ديننا».

قال العالم: «لكن الله هو الذي خلق عقلي الذي ابتكر الطائرة».

فلم يأبه الملتحي للعالم إنما تلفت فيما حوله ثم قال متسائلاً: «إذا ساعدنا ابليس على الانتصار على أعدائنا، ألا نكون ربحنا الدنيا وخسرنا الدين؟ وهل فينا من يتنكر للدين ويفضل دنيا زائلة لا بقاء فيها؟».

فتعالت الأصوات مستنكرة الدنيا الزائلة.

وقال قائد الجند: «أجدادنا وأجداد أجدادنا خاضوا كما تعلمون آلاف المعارك وانتصروا فيها، وكان سلاحهم السيف والأخلاق الحميدة. هذا السلاح الجديد تأباه أخلاقنا، فهو غدر لئيم يخلو من الرجولة والمروءة ويناقض عاداتنا وتقاليدنا. وماذا يبقى منا إذا تخلينا عن عاداتنا وتقاليدنا؟ إذا أردنا حقاً ان ندوم ونبقى، حافظنا على ما ورثناه وسرنا على هديه».

فتصاعدت الأصوات مؤيدة القتال الشريف ممجدة أخلاق الأجداد.

وصاح العالم: «ما هذا الكلام؟ العادات والتقاليد لن تهزم الأعداء».

www.alkottob.com

وقال أحد الوزراء: «لا بد من ان ثمة تآمراً خبيثاً على بلادنا، فهل من المعقول ان يخترع شخص سلاحاً خطيراً ثم يعلن انه لا يريد ثمناً له؟!».

وتكلم وزير آخر، فقال: «سمعت زعماً بأن السلاح الجديد سيهزم الأعداء شر هزيمة، وهذا زعم باطل، فالانسان المسلح بالقيم النبيلة هو الذي يهزم الأعداء لا السلاح».

وقال وزير ثالث: «لسنا بحاجة إلى أسلحة جديدة، فنحن نملك الأسوار المنيعة. ومن يتحدث عن الأعداء وخطرهم لا يبغي سوى إضعاف الروح المعنوية وخدمة الأعداء».

وقال قائد الشرطة: «انني أُنبّه وأُحذّر، فالطائرة التي تطير فوق الأعداء، تطير أيضاً فوق قصر مولانا الملك».

فأشار الملك بيده، فهيمن الصمت فوراً، وفكّر الملك لحظات مقطب الجبين ثم قال للعالم متسائلاً: «أين طائرتك؟».

قال العالم: «إنها على سطح بيتي».

فأمر الملك بإحراق العالم وبيته وطائرته، فابتسم العالم ابتسامة مفعمة بالمرارة والتشفي والحزن.

ونُفذ أمر الملك في الحال. ولمّا التهمت النار البيت والعالِم والطائرة، صاح أعوان الملك فرحين، ولكن صياحهم خنقه سريعاً الأعداء الذين نجحوا في التسلل إلى دمشق غير مبالين بأسوارها، وحولوا البيوت والناس والأزقة

www.alkottob.com

أطلالاً غير أن الياسمين نبت بعدئذٍ في الرماد شمساً بيضاء.

www.alkottob.com

موت
الياسمين

www.alkottob.com

[redacted]

استطاعت سلمى التوظف معلمة في إحدى المدارس اثر نوالها شهادة تثبت انها ضاجعت ٩٢٧ رجلاً في سنة واحدة. وقد عهد إليها بالتدريس في الصف الأول، وكان عدد تلاميذه ثلاثين طفلاً، لا يتجاوز عمر كل منهم سبع سنوات.

ولما فتحت سلمى الباب بحذر وغبطة، ودلفت إلى داخل قاعة الدرس دون ضجة، كان التلاميذ يصخبون ويتصايحون. وكان بعضهم يضرب خشب المناضد بقبضاته، ولكنهم كفّوا عن الضجيج جميعاً إذ تنبهوا لوجودها، وبدأوا بالتطلع إليها متفحصين. وكانت سلمى فتاة جميلة، لها نهدان ناضجان، وشفتان مكتنزتان ومنفرجتان باستمرار كأنهما موشكتان على الهمس في أي لحظة بسرّ مثير.

وساد الصمت في قاعة الدرس الطويلة، ووقفت سلمى أمام اللوح الخشبي الأسود، وأخذت تراقب وجوه الأطفال الذين صاروا منذ تلك اللحظة تلاميذها، وغمرها فرح

www.alkottob.com

طاغ، فقد تحقق حلمها بأن تحيا مع أطفال لم يعرفوا بعد المرارة والهزيمة.

وهمس تلميذ قائلاً لزميله الجالس بجواره: «انظر إلى حضنها».

-: «أنا أنظر إلى نهديها فقط».

-: «لماذا؟».

-: «أنا روحاني».

وفي آخر قاعة الدرس، كان ثمة اثنان يتحدثان بصوت خافت: «أين سهرت البارحة؟».

-: «في الملهى، وكان الويسكي رديئاً».

وبصق باشمئزاز على الأرض، ثم قال: «كل شيء أصبح رديئاً في هذه الأيام».

وقالت سلمى بصوت عذب: «هذا هو الدرس الأول، وسأعلّمكم...».

فهتف أحد الأطفال مقاطعاً: «ماذا ستعلميننا؟».

-: «اللغة».

فنهض طفل له عينان سوداوان، وقال متسائلاً بلهجة متحدية: «وما الفائدة من اللغة؟».

-: «ستقرأون الكتب».

-: «ماذا يوجد في الكتب؟».

-: «تجارب الحياة كلها».

-: «لا نريد».

www.alkottob.com

وارتفعت صيحات الصغار تردد: «لا نريد».

فصرخت سلمى بصرامة: «اسكتوا».

وتساءلت عندما خفتت أصواتهم: «إذن ماذا تريدون؟».

«غني لنا».

«ارقصي».

«حدّثينا عن الحب».

وأشعل أحدهم سيجارة، وراح ينفث دخانها بضجر وعصبية بينما أخرج آخر مجلة من درج منضدته، وانهمك في تقليب صفحاتها متأملاً صور نساء عاريات.

وقال طفل ذو شعر أشقر، تنحدر خصلة منه على جبهته: «أنا أخاف من النوم وحدي».

فابتسمت سلمى، وسألت بحنو: «ماذا تريد مني؟».

-: «نامي معي».

فقالت متسائلة بلهجة مرحة: «ألن يعترض والدك؟».

-: «سينام معنا».

وقال تلميذ آخر ذو ثياب أنيقة: «هل تتعشين معي الليلة؟».

فتأملته سلمى ملياً دونما كلمة.

ولوّح أحد التلاميذ بمدية متألقة النصل، وقال لزملائه: «سأذبح دجاجات الجيران ثم أذبح بنات الجيران ثم أذبحكم».

وبغتة وقف تلميذان، وطفقا يتبادلان اللكمات

www.alkottob.com

والصفعات، فترك التلاميذ مقاعدهم، والتفوا حولهما متصايحين بحماسة، فأسرعت سلمى نحو الطفلين المتشاجرين، وأبعدت واحدهما عن الآخر، فانتهز التلاميذ الفرصة، وأخذوا يلتصقون بسلمى، ويلمسون جسدها بأيديهم، ويقرصون لحمها الطري بأصابع نهمة، فلم تغضب سلمى إنما ضحكت مبتهجة، وسألت أحد التلميذين: «لماذا تشاجرتما؟».

ـ: «طلب مني أن أخبره عما يفعل أبي مع أمي».

فقالت سملى متصنِّعة الأسف: «لماذا لم تخبره؟ ألا تحب فعل الخير؟».

وتسللت نبرة غاضبة إلى صوتها بينما كانت تستأنف كلامها قائلة: «يجب ان تحب الآخرين لكي تكون انساناً طيباً كاملاً. أنت أناني. هل تحب أحدا؟».

ـ: «أنا أحب زوجة جارنا».

ـ: «لماذا؟».

ـ: «جسدها ضخم وجميل».

ـ: «هل ستحبها لو كانت قبيحة؟».

ـ: «لا. سأحبّ ابنتها».

وفي تلك اللحظة كان الصغار قد تجمعوا كلهم حول سلمى متزاحمين وتواقين إلى الالتصاق بجسدها.

وازداد عدد الأيدي الصغيرة التي تلمس لحمها، وبعثت طراوة اللحم في الأصابع روحاً شريرة، حوّلت الأصابع حيوانات صغيرة متوحشة.

www.alkottob.com

وضحكت سلمى بمرح، وكانت ضحكتها كغيمة بيضاء تعبر سماء صيف أزرق. وتدافع الأولاد فيما حولها كأنهم نحل يبغي امتصاص رحيق زهرة واحدة.

واشتدت ضراوة أصابعهم بينما هي تلمس اللحم الطري، وتفاقم توقها إلى اقتحام سهول بيض ناعمة، شمسها حارة. وحاولت الأصابع تمزيق الثوب، فقاومت سلمى ضاحكة غير أن مقاومتها الضئيلة قوبلت بعنف محموم، أضعفها، وبدد قواها وأجبرها على الاستسلام والسقوط بإعياء على الأرض.

وغرقت سلمى في طوفان الأيدي الصغيرة التي مزقت ثيابها كلها، وأحست بالبلاط بارداً تحت ظهرها العاري بينما كان الأطفال كحيوانات غامضة لا عدد لها تلهث وتدب فوق لحمها وتعتصره بشراسة.

وضحكت سلمى وهي توشك ان تبلغ ذروة الفرح، فقد كانت تتمنى فيما مضى أن تعيش مع أطفال لم يعرفوا بعد أقنعة الأرض السود غير ان هلعاً جنونياً امتلكها فجأة حينما بدأت الأسنان الصغيرة تقرض لحمها وتصطدم بالعظم الصلب.

www.alkottob.com

الحب

www.alkottob.com
www.alkottob.com

أطلقت صفارات الانذار صراخها الممطوط الحاد، فأطفأت المدينة أضواءها محاولة خنق شهقة ذعر.

وتعانق بلهفة رجل وامرأة مستلقيين على سرير ضيِّق.

قال الرجل: «أخائفة؟».

ـ: «لن أخاف».

قال الرجل بصوت خافت: «ها أنت بعد غياب طويل».

ولمس شعرها بيد مرتعشة، وقال: «في كل ليلة كانت الوسادة تسألني عنك».

ضحكت المرأة. ضحكتها لها جناحا عصفور صغير.

قالت: «وماذا كنت تقول لها؟».

ـ: «كنت أقول لها: أنا رجل غيور. لماذا تسألين؟».

ـ: «وماذا كانت تقول لك؟».

ـ: «كانت تقول: اشتقت إلى شعرها الأسود».

www.alkottob.com

ـ: «ولكنها صامتة الآن».

ـ: «الفرح أفقدها القدرة على الكلام».

وأحسّ بها لصقه جسداً حياً عارياً، عشباً أخضر، نهراً من النجوم، وها النجوم تتسرب إلى شرايينه، فيلصق فمه بفمها المرتعد الشفتين. وعندئذٍ أقبلت طائرات العدو، وحوَّمت في سماء الغرفة، وألقت قنابلها.

www.alkottob.com

الطفل نائم

www.alkottob.com

www.alkottob.com

رمق الطفل دميته بنظرات حانية، ورجاها ان تسابقه في العدو حول البحرة التي تتوسط باحة البيت. وكانت الدمية بنتاً جميلة، سوداء الشعر والعينين، وقد رفضت تلبية رجاء الطفل قائلة إنها أميرة ولا يليق بالأميرات ان يركضن مع ولد حافي القدمين، فالأميرات لا يمشين بل يركبن عربات ذهبية تجرّها خيول بيض.

استاء الطفل من جوابها، ولاذ بالصمت هنيهات، ثم ما لبث ان ابتسم وعاود التحدث مع دميته، فأبت ان تتخلى عن صمتها، وأغمضت عينيها بحركة ازدراء، فانفجر آنئذٍ غضب الطفل، وسبّ الدمية، ورماها أرضاً بحنق، ثم قصد المطبخ حيث كانت أمه منهمكة في إعداد طعام الغداء.

ولما أبصرته الأم ابتدرته قائلة بلهجة مؤنبة: «ألم أقل لك ألاّ تدخل المطبخ؟».

فقال الطفل: «عطشت».

فملأت الأم كوباً زجاجياً بالماء، وقدمته إلى طفلها

www.alkottob.com

www.alkottob.com

متذمرة. وما إن همّ الطفل بشرب الماء حتى أفلتت يداه الكوب، وسقط على الأرض، فتحطم، وتناثرت شظاياه، فزعقت الأم غضبى، وأمرت طفلها بمغادرة المطبخ فوراً، فلم يطعها إنما تشبث بطرف ثوبها متباكياً، وأنبأها بأنه يكره دميته وسيقطع رأسها بالسكين، فاحتارت الأم، وتطلعت فيما حولها بعينين مستغيثتين، فلمحت جريدة عتيقة مرميّة على رفٍّ خشبي، فتناولتها وأخذت تطويها بحركات بارعة، وصنعت منها زورقاً صغيراً. وفرح الطفل بالزورق، وغادر المطبخ مهرولاً نحو البحرة، وهناك وضع الزورق على سطح الماء الساكن، ثم طفق يحرك الماء بيديه محاولاً ان يجعل الزورق ينساب متقدماً إلى الأمام غير ان الزورق ظل يترنَّح متمايلاً ومتجمداً في مكانه.

وسئم الطفل بعد حين من الزورق، فتركه على سطح الماء، وابتعد عن البحرة، ووجد نفسه يتمدد على الأرض بالقرب من دميته، وأغمض عينيه بينما كان يتناهى إليه مواء قطه الأسود الذي كان يربض على سطح البيت منادياً بإلحاح قطة الجيران.

وما إن استسلم الطفل للنوم حتى تحولت البحرة بحراً هائجاً، متلاطم الأمواج، وتحول الزورق سفينة ضخمة، وتحولت الدمية امرأة جميلة الجسد، فاحمة الشعر، بيضاء البشرة، تقف عارية القدمين على الشاطىء الرملي غير مكترثة للقط الأسود الذي كان يحوم حولها وهو يموء مواءً حاداً.

وعصفت الريح بضراوة، وقادت السفينة إلى الشاطىء.

www.alkottob.com

ولم يسمع الطفل أصوات الريح لأنه كان نائماً ويراقب أرنباً أبيض اللون يعدو في بستان أخضر.

ورست السفينة على الشاطىء، وتدفق منها سيل من الرجال، وتعالى صراخهم وحشياً مبهوراً لحظة لمحوا المرأة الجميلة، واندفعوا نحوها طوفاناً عارماً من الأجساد المبتلة بماء البحر والعرق، فأطلقت المرأة صيحة ذعر مديدة، وركض القط الأسود هارباً.

ولم تستطع صيحة المرأة ايقاظ الطفل النائم الذي كان يطارد أرنباً أبيض يعدو في بستان أخضر.

وحاولت المرأة الفرار غير ان الرجال تمكنوا من امساكها، وطفقوا يتدافعون حولها متزاحمين، يلهثون بأصوات عالية، وأيديهم تتخاطف لحمها. وأوشكت الدماء ان تراق على رمال الشاطىء لو لم يسارع واحد منهم كبير السن، ويطالبهم بالتريث والهدوء والتعقل. وعندئذٍ تخلت وجوه الرجال عن تجهمها وتلاشى الضجيج، وتحلقوا حول المرأة الملقاة على الرمل وهم يعضون على ألسنتهم بأسنانهم.

وقاومت المرأة الرجل الأول، فقوبلت بعنف ضار وبصيحات هزء من الرجال، فأغمضت عينها خجلة.

وكان الطفل آنذاك لا يزال مستسلماً للنوم يعدو محاولاً امساك الأرنب الأبيض الهارب عبر البستان الأخضر. واشتد جوع القط الأسود، وفرح حين لمح أفعى تزحف على الرمل، فانقضّ عليها، ولكنها سارعت إلى الالتفاف حول عنقه، فأطلق مواءً متحشرجاً.

www.alkottob.com

وبكت المرأة دونما صوت بينما يختلج جسدها تحت أجساد الرجال كعصفور يحتضر غريقاً في دمه.

ولم يمسح الطفل دموعها لأنه كان نائماً ويركض محاولاً اللحاق بالأرنب الأبيض الذي يعدو في البستان الأخضر.

وكفّ جسد المرأة عن الاختلاج، وهمدت أصوات نحيبها، فتزايد فرح الرجال، وتطلعوا إلى جسدها الأبيض الهامد العاري بعيون يصرخ فيها جوع جديد.

وكان الطفل في تلك اللحظة ما زال يركض في البستان الأخضر مطارداً الأرنب الأبيض.

ولما اضمحلَّ جوع الرجال، حملقوا باشمئزاز إلى جسد المرأة الملطخ بالدم، ثم انحنوا وحملوا الجسد وألقوا به إلى البحر مطلقين آهة ارتياح.

وكان الذباب في تلك الهنيهة يغطي جثة القط الأسود.

وتلقفت مياه البحر جسد المرأة، وغسلت فوراً الدماء عنه ثم غاص الجسد إلى الأسفل يتبعه سمك كثير العدد بينما كان الطفل مغمض العينين مستسلماً للنوم، وكان لا يزال يطارد الأرنب الأبيض الذي يعدو مذعوراً في بستان أخضر.

www.alkottob.com

الرغيف اليابس

www.alkottob.com

[redacted]

طوّف عباس طويلاً في الطرقات، وكانت حوانيت بائعي الخبز مقفلة الأبواب، فالقمح مفقود منذ زمن بعيد، والأرض لم تلبّ استغاثة البشر.

ولقد دهش عباس لحظة شاهد صبياً يخرج من أحد البيوت حاملاً في يده رغيفاً يابسا أبيض اللون.

وتوقف عباس عن السير، وتجمد في مكانه هنيهة يراقب الصبي ثم انقضّ عليه، واختطف الرغيف من يده، وانطلق يعدو هارباً بينما يطارده صراخ فاجع.

وعاد عباس إلى البيت، وأوصد باب غرفته خلفه بإحكام شديد، ثم جلس على حافة السرير، يلهث متعباً بينما نظراته عالقة بالرغيف.

وتلمست أصابعه الرغيف بحنان، واستنشق رائحته. سيبلّله بقليل من الماء ثم ينتظر ريثما يلين ويستعيد طراوته، وعندئذٍ سيلتهمه ماضغاً قطعة صغيرة إثر قطعة.

وسمع عباس طرقاً مباغتاً على الباب، فانكمش، وكفّ عن التنفس، وتمسّكت يداه بالرغيف بينما استمر الطرق.

www.alkottob.com

وتعالى صوت مناد: «عباس.. عباس..».

فعرف عباس حالاً صاحبة الصوت غير أنه قال بتبلُّد: «من؟».

ـ: «أنا ليلى».

وكانت ليلى، بنت عمه، فتاة جميلة، شاحبة، محبة للصمت، تعيش في بيتهم منذ موت والديها قبل أشهر. ولكم تألم عباس لأن ليلى تعشق أخاه الأكبر الذي سافر إلى مدينة نائية باحثاً عن عمل.

وسمع عباس صوت ليلى صائحاً: «افتح الباب».

ـ: «اذهبي. قد تراك أمي».

وكانت الأم دائبة على مراقبة عباس ومنعه من الاقتراب من ليلى. وكان عباس يريد على الدوام ان يتحول هواءً تستنشقه ليلى ليستقر في صميم كل خلية من خلايا جسدها. وكانت ليلى ترهبه ويطل نفور جامح من عينيها كأن عباساً ثور يوشك ان يهجم ويبقر بطنها بقرنيه.

ـ: «افتح الباب».

ودنا عباس من الباب، وألصق وجهه بخشبه من دون ان يحاول فتحه، وظلت يداه ممسكتين بالرغيف.

وقرعت ليلى الباب من جديد، وهتفت بإلحاح: «عباس.. عباس.. افتح الباب».

ـ: «اذهبي. قد تراك أمي».

ـ: «افتح الباب».

www.alkottob.com

-: «ماذا تريدين؟».

-: «أمك ليست موجودة في البيت».

فتنهد عباس بارتياح بينما عاودت ليلى القول بصوت مرتعش: «افتح الباب».

-: «ماذا تريدين؟».

-: «أريد ان أراك».

-: «وماذا تريدين مني؟».

-: «أريد ان أدخل».

-: «لن أفتح الباب».

-: «أنا جائعة».

-: «غرفتي ليست مخزن مؤونة».

-: «رأيتُ الرغيف».

وصار صوت عباس فظاً: «الرغيف رغيفي».

-: «أنا جائعة».

-: «الرغيف رغيفي. انه ملكي».

-: «أطعمني قطعة صغيرة».

-: «موتي جوعاً».

وصمتت ليلى هنيهات ثم قالت بصوت مرتبك: «ألا تحبّني؟».

-: «لن أطعمك ولا لقمة واحدة».

-: «ألا تحبني؟».

www.alkottob.com

ـ: «لا أحبك».

وساد الصمت مرة أخرى، ثم قالت ليلى متسائلة بانكسار: «ألا تحبني قليلاً؟».

ـ: «ماذا تعطيني إذا أعطيتك الرغيف؟».

ـ: «ستعطيني الرغيف؟».

ـ: «سأعطيك الرغيف كله».

ـ: «سأعطيك ما تطلب».

فهتف عباس: «سأفعل بك ما أشاء».

ـ: «افتح الباب».

ـ: «أنت تعرفين ما أريد منك؟».

ـ: «افتح الباب».

ـ: «سأقبّلك».

ليلى صامتة.

ـ: «سأمزق ثيابك».

ليلى صامتة.

ـ: «سآكل لحمك».

ليلى صامتة.

ـ: «لن تخبري أمي وأخي».

ـ: «افتح.. أنا جائعة».

وفتح عباس الباب، فدلفت ليلى إلى الداخل بسرعة، وثبّتت على الفور نظراتها على الرغيف الذي تمسكه يد

www.alkottob.com

عباس، فأسرع إلى إخفائه وراء ظهره، واقترب من ليلى، فتراجعت قائلة: «أعطني الرغيف أولاً».

ـ: «لن أعطيك الرغيف. قد تصيحين أو تهربين».

ـ: «لن أهرب».

ـ: «سأعطيك الرغيف فيما بعد».

فتطلعت إليه ليلى متوسلة، وقالت: «أعطني الرغيف».

فاشتدت أصابع عباس تمسكاً بالرغيف، وأحس ان قوة غريبة تجتاحه، فقال: «سأضعه على الطاولة، وستأخذينه في النهاية».

واتجه عباس نحو الطاولة، ووضع الرغيف على سطحها ثم عاد نحو ليلى، ووقف قبالتها منفرج القدمين، وحملق إليها بشراهة. ها هي ذي ليلى. لكم تعذب من أجلها، وحلم انه سيذبح أمه وأخاه ذات ليلة، ويدفنهما في باحة البيت ثم يعود ليحتضن ليلى النائمة بيدين مخضَّبتين بالدم الأحمر.

واندفع عباس نحو ليلى، وطوّق خصرها بذراعيه، فقاومت إلى حد أجبره على تركها، فتجهّم وجهه، وقال لها بغضب: «لن أعطيك الرغيف».

فظلت ليلى واقفة مترددة مرتبكة ثم اقتربت من عباس، والتصقت به، فاعتصرها بين ذراعيه من جديد، وطفق يقبِّل وجهها وشعرها وعنقها، وأجبرها على السقوط معه على البساط، فأصبحا متمدّدين متلاصقين وجهاً لوجه. وأطبق فمه على شفتيها. وصدم ليلى على الفور طعم بعث التقزز

www.alkottob.com

في نفسها. طعم تبغ لاذع. وحاولت المقاومة غير أن فمه ظل متمسكاً بشفتها السفلى، وبدأت شيئاً فشيئاً تستسيغ الطعم الجديد، وودت لو يتزايد.

وأبهجتها سكينة نامية في أعماقها، فالرغيف سيكون لها، ولكنها ستتقاسمه مع عباس. ودهمتها مشاعر حادة وقاسية أغرقتها في هلع خشن، فهمست بصوت مبهور: «اتركني. سأصرخ».

-: «اصرخي».

وتذوّق عباس طعم الشفة الغضة الناعمة.

وهدرت في تلك اللحظة أغنية في شرايين ليلى، أغنية لا كلمات لها، ذات ايقاع متوحش. وحين تلقف فمه نهدها، سرى في لحمها الثلج البارد ثم أشرقت شمس صيف عجوز. وغمرها حنان عارم، وشعرت أن عباساً ليس إلاّ طفلها، ورغبت في أن ينساب الحليب في ثدييها، ويتدفق إلى فمه.

وسمعت عباساً يقول لها: «افتحي عينيك».

فأطاعته، ونظرت إليه. وكانت نظراتها مفعمة بالعذوبة (نظرة عينيها حمامة بلا جناحين)، وكان حنين عباس إلى رؤية جسدها عارياً يتعاظم كنار تلتهم أشجار غابة. وابتدأ ينزع ثيابها، فلم تمانع إنما استسلمت استسلام طفلة ليدي أمها. وكانت ثيابها الداخلية وسخة وعتيقة ومهترئة.

وسطع لحمها الأبيض عارياً، وتلألأ نهار الجسد. وامتدت يدا عباس، ونزعتا بارتباك شريطة خضراء تربط

www.alkottob.com

شعرها، فانهمر الشعر منسدلاً بفوضى، وامتزج ليله بنهار الجسد الفتي.

وقال عباس بصوت متهدج: «عانقيني».

فطوّقت عنقه بذراع واحدة بينما ضغطت أصابع يدها الأخرى على لحم خاصرته.

وقال عباس: «قولي لي إنك تحبيني».

ـ: «أحبك».

ـ: «قولي لي يا حبيبي».

ـ: «يا حبيبي».

ـ: «قبّليني».

فأخذت ليلى تقبّله قبلات قصيرة سريعة متلاحقة. وسقط عباس في عالم مشتعل تمتلكه ليلى، وحاول أن يكون سيداً، ونادى بضراعة ضراوته وجوعه القديم لجسد ليلى غير أنه ظل عاجزاً عن ان يكون رجلاً، وأدرك انه ليس إلاّ مخلوقاً خائراً هزيلاً يرتجف باضطراب.

وكانت ليلى المتمددة لصقه تتشبث به، مغمضة العينين، وخيِّل إليها انها تسمع هدير قطيع من الثيران الهائجة، وانتظرت مفتوحة الفم، منتشية، أن تقبِّل الثيران الهائجة.

وشعر عباس بالحيرة والخجل، وتطلع نحو الطاولة حيث الرغيف، وراح وهو يلمس اللحم الناعم يتخيل الرغيف مبتلاً بالماء تفوح منه رائحة حقول تساقطت فوقها الأمطار الغزيرة.

www.alkottob.com

وتزايد ارتباك عباس، وسمع ليلى تهمس: «حبيبي.. حبيبي».

والتصقت به أكثر فأكثر. وتضاعف خجله، وفقد اللحم إغراءه، ولم يستطع عباس الانتظار، فتخلص من ليلى بحركة مفاجئة صارمة، وهبَّ واقفاً، واختطف الرغيف من فوق الطاولة، واتجه نحو باب الغرفة.

واستطاعت ليلى التمسك بقدم عباس، فركلها ركلة قاسية، أصابت بطنها، فارتمت على ظهرها، تعول متوجعة وهي عارية.

وخرج عباس من الغرفة، واجتاز باحة البيت راكضاً، وفتح باب البيت الخارجي ثم صفقه خلفه بقوة، وهرول في الزقاق مبتعداً عن البيت، ثم وقف بعد قليل، وألصق ظهره بحائط ترابي بينما كانت أصابعه تمسك الرغيف بضراوة.

www.alkottob.com

الاعدام

www.alkottob.com

يتدلّى عمر المختار من أعواد المشنقة منكس الرأس، مغمض العينين، مطمئناً، صامتاً، وقوراً، غير آبه للحارس المكلف بمراقبته والمسلح ببندقيته.

وكانت الشمس المشرقة آنذاك ثلجاً أصفر، فحاول عمر المختار البحث عن شمس أخرى تمنح الدفء لدمائه الباردة، فتخيّل عصفوراً صغيراً جائعاً يرفض الذهاب صباحاً إلى مدرسته مترقباً تهطال الأمطار كي تبلل رغيفه اليابس، وتخيّل وردة بيضاء غافية على سرير حديدي ترتجف مقرورة ولا تملك من المال ما يكفي لشراء مدفأة، وتخيّل قطاً سجيناً في الصيدليات يحلم بامتلاك عاصفة من أجنحة، وتخيّل غيوماً تركض في الأزقة مغبرة الثياب وتتشاجر مع الصغار وتحطم بحجارتها زجاج النوافذ.

وعندئذٍ صاح الحارس مخاطباً عمر المختار: «ما بك؟ لماذا تبتسم؟ أتسخر مني أم تفكر بالنساء؟».

فقوبل سؤاله بالصمت، فأردف قائلاً بلهجة متذمرة: «تكلم. لماذا لا تتكلم؟ إلى متى ستظل ساكتاً؟ ألم تسأم؟ لا

www.alkottob.com

تكن متعجرفاً، فجدّي لم يكن خادماً لجدك. أف! يا له من عمل شاق يخلو من التسلية!».

ومرّ في تلك اللحظة ولد صغير يحمل بنتاً من شمع، فتوقف عن المسير، وحدق بذهول ورهبة إلى المشنقة، فصاح به الحارس بصوت خشن: «امش. ممنوع الوقوف».

لم يتحرك الولد من مكانه، وبدا عليه كأن أحدا لم يخاطبه، فاغتاظ الحارس، ودنا منه، وسأله بحدة: «لماذا تقف هنا؟».

قال الولد: «اني أنظر».

قال الحارس: «إلى أي شيء تنظر؟ إلى مطعم؟».

فأشار الولد بسبابة صغيرة إلى عمر المختار، وقال: «اني أنظر إليه».

فقال الحارس متسائلاً بفضول: «ألست خائفاً منه؟».

فهزّ الولد رأسه بالنفي، فقال الحارس وقد ازداد غيظه: «الأولاد المهذبون يخافون من المشنوقين».

ومدّ يده بحركة مفاجئة، وانتزع الدمية من الولد، فصاح الولد بصوت رفيع متهدج: «أعدها إلي.. أعدها إلي..».

فضحك الحارس وقال: «قبّل يدي أولاً. هيا قبلّها. لا تريد تقبيل يدي؟!».

ـ: «أعدها إليَّ.. أعدها إليَّ».

فقال الحارس: «اسكت. لقد صودرت عقاباً لك على

www.alkottob.com

عدم احترامك للقوانين. هيا اركض وإلاّ سلخت جلدك وحشوته قشاً».

فلم يركض الولد إنما مشى بخطى متمهلة حتى صار على مبعدة من الحارس، ثم توقف وصاح: «سأحضر أخي ليضربك».

فانحنى الحارس على الأرض، والتقط حجراً، وقذف به الولد وهو يقول: «وأحضر أمك أيضاً».

فقفز الولد متحاشياً الحجر ثم انطلق يعدو مبتعداً.

وتنهد الحارس بأسى، وقال لعمر المختار: «جيل ملعون لا يحترم أحداً. أتعرف لماذا أخذت الدمية مع أني لست متزوجاً؟!».

لم يجب عمر المختار، فأضاف الحارس قائلاً: «إياك وان تظن أني سألعب بها، فقد صرت رجلاً منذ زمان طويل».

ثم خاطب نفسه بصوت مرتفع: «ماذا سأفعل بها الآن؟».

وفكّر لحظات ثم صاح بغتة بمرح: «سأحاكمها. لماذا لا أحاكمها؟».

ورمق عمر المختار بنظرة حانقة، وقال له: «أنت مخطىء إذا توهمت أني لا أصلح لإدارة محاكمة».

ورمى الدمية على الأرض صارماً متجهماً، وصاح بصوت أجش: «محكمة».

والتفت إلي عمر المختار، وقال له محذراً: «إياك والضحك وإلاّ شنقتك».

www.alkottob.com

وقطب جبينه، وقال للدمية: «أنت يا بنت متهمة بـ.. لقد نسيت التفكير بالتهمة. حسناً. أنت متهمة بارتكاب جريمة سأنبئك بها فيما بعد، فهيا اعترفي ولا تحاولي خداعي، فأنا أتقن إطلاق النار. أنت لا تريدين الكلام؟ افعلي ما يحلو لك، ولكنك ستدفعين ثمن تحدّيك للمحكمة».

وتطلّع فيما حوله بعينين قاسيتين، وقال مخاطباً جمهوراً خفياً: «الضجيج ممنوع».

وصمتت الثياب المغسولة المعلقة على شرفات الأبنية بينما كان الحارس يزعق آمراً: «اعدام».

وأضاف بصوت خافت حائر: «ولكن كيف أعدمها؟ سأطلق النار عليها. لا، لا. سأخسر عدداً من الرصاصات. سأذبحها. لا، لا. سأدخر قوّتي لذبح دجاجة أو خروف. ماذا أفعل؟».

وحملق حيناً إلى البنت الصغيرة الشاحبة، ثم تهلل وجهه فرحاً، وسارع إلى احضار حبل وربطه بأعواد المشنقة التي يتدلى منها عمر المختار، ثم سأل البنت بلهجة حانية: «ما هي رغباتك الأخيرة؟ ماذا؟ أتريدين مشاهدة فيلم مضحك؟ اني أعتذر لعدم تمكني من تلبية رغبتك، فساعة الموت لا تؤجل، ويجب ان تجابه بخوف ودون مزاح».

وشدّ قامته، وصرخ: «الموت للخونة».

وحمل الدمية، ولفّ الحبل حول عنقها ثم تركها لتهوي في الفراغ متأرجحة بجوار عمر المختار.

www.alkottob.com

ورغب عمر المختار في الصراخ غير ان الدموع بلّلت حالاً وجهه المتجعد ولحيته الطويلة البيضاء، فها هو العصفور الصغير يطرد من مدرسته لأنه لا يتقن سوى الغناء، وها هي الغيوم تمنع من السير في الشوارع العريضة لأن ثيابها عتيقة مهترئة، وها هو القطن يؤكل بدلاً من الخبز، وها هي الوردة تلعق دمها، وها هو عمر المختار ينبذ حبل مشنقته ويعدو نحو المقبرة بينما شموس الأرض تتوارى وتنطفىء شمساً تلو شمس.

www.alkottob.com

وجه القمر

www.alkottob.com

www.alkottob.com

كانت فأس الحطاب تهوي برتابة على جذع شجرة الليمون المنتصبة في باحة البيت بينما كانت سميحة جالسة قرب النافذة المطلة على الزقاق، حيث تتصاعد بين الفينة والفينة صرخات شاب معتوه، وتمتزج بأصوات الفأس. وكانت رائحة شجرة الليمون تتسلّل إلى الغرفة وتتغلغل في الهواء كأنها شحاذة عمياء تطرق الأبواب متوسلة بانكسار.

وتعالت صرخات المعتوه، وتناهت إلى مسمع سميحة متقطعة خشنة، يكمن فيها حيوان متوحش غاضب ينادي مخلوقاً ما هائجاً في شرايينها، وكان باستطاعتها رؤية المعتوه وهو يقفز في الزقاق، وحوله بضعة أولاد يتصايحون ويرمونه بقشور البرتقال. وكانت سميحة واثقة بأن عينيه كنمرين مريضين غافيين على عشب أدغال مظلمة.

وكان والد سميحة رجلاً هرماً يعذبه المرض، وقد ضايقته رائحة شجرة الليمون، فصمّم على الخلاص منها، وأحضر الحطاب غير آبه لتوسلات سميحة، فشجرة

www.alkottob.com

الليمون صديقتها منذ أيام الطفولة، وهي تزداد جمالاً حين يقبل الشتاء وتتلألأ حبّات المطر على أوراقها، وعندئذٍ يبدو اخضرارها مضيئاً وساطعاً كأنه سيشتعل بعد هنيهات.

وعادت صرخات المعتوه تتعالى كأنها بكاء شجرة الليمون التي ستهلك بعد قليل، ونما في لحم سميحة خوف مبهم، وخيِّل إليها انها تملك سماء مفعمة بنجوم ذات أنوار شاحبة ليست إلاّ أحلامها الميتة، فقد كانت سميحة في تلك اللحظة مجرد امرأة في مقتبل العمر، طلقها زوجها منذ أشهر. وقد تكون زوجة صالحة، تطهو الطعام وتغسل الثياب وتنظف الغرف وتستسلم للرجل الزوج متصنِّعة النشوة والمرح والحرارة. وعندما كان عمرها عشر سنوات صفعها والدها بقسوة لأنه شاهد ثوبها منحسراً عن فخذيها، ولكنها عندما أمست موشكة على الزواج علَّمتها قريباتها المتزوجات كيف يتحرك جسدها لحظة التقائه بالرجل، ويصير صوتاً متجاوباً مفعماً بالتآلف والتناغم والشهوة المنتشية التواقة إلى الرجل. وكان زوجها يغضب ويحنق عليها، ففي الليل وهي متمددة لصقه تهلع وتنكمش حين تلمسها يداه، وتتحول لحماً ساكناً مستسلماً دون حركة لثقل رجل ما. ولم يستطع الزوج العيش معها، فقد كان يريد امرأة تتأوه ويرتعد لحمها إذ تستنشق رائحة رجل ناء.

وعادت سميحة إلى بيت أهلها لتعيش مخذولة، تساعد أمها في أعمال البيت ثم تبدد بقية ساعات النهار جالسة قرب النافذة تراقب عابري الزقاق.

www.alkottob.com

وكان الشاب المعتوه لا يفارق الزقاق، ويظل يصرخ ويقفز مطارداً الأولاد.

وكانت الفأس في تلك الهنيهات ما زالت تجرح بحدّها جذع شجرة الليمون مخترقة جسدها أكثر فأكثر، وكان صوت الفأس يدفع سميحة إلى ان تحسّ بأنها تفقد طفولتها شيئاً فشيئاً. ولقد كانت سميحة في الأيام القديمة طفلة تضحك دونما سبب، وكان القمر يرعبها، ولا تقدر على الاقتناع بأنه مجرد قرص ذي ضياء أبيض.

وسمعت سميحة صيحة حادة غريبة، فأدركت حالاً انها لا بد صادرة عن المعتوه، فتطلعت من النافذة، فإذا بالمعتوه قاعد على الأرض، يمسك رأسه بيديه بينما الدم ينبثق من بين أصابعه. وكان الأولاد قد لاذوا بالفرار بعد ان قذفه أحدهم بحجر.

وابتعدت سميحة عن النافذة خاضعة لرعب خفي، وارتمت على الأريكة، وامتزج عطر الليمون وأصوات الفأس بصراخ المعتوه. وأغمضت عينيها مستسلمة لارتعاشة قاسية، وأحسّت ان ثمة أصابع تضغط على حنجرتها مانعة عنها الهواء، وأرادت الصراخ مستغيثة قبل ان تختنق، وزحف ثقل مؤلم مجتازاً جسدها كله، ثم انزاح تاركاً خلفه سميحة تستعيد الهواء والسكينة. وأخذت سميحة تلهث بسعادة يخالطها بعض الخوف، وأبصرت بغتة الرجل الغامض الذي اعتاد أن يقتحم أحلامها في الليل. وكان رجلاً طويل القامة، عارياً تماماً، وجلده مغطى بطبقة كثيفة

www.alkottob.com

من الشعر الأسود الخشن. ولكم تاقت إلى أن تلمسه غير أنها لم تستطع التحرك.

وكانت الفأس ما زالت تضرب بحقد جذع شجرة الليمون.

وابتسم الرجل الغامض وهو واقف قرب الباب، وتألقت عيناه. وقالت سميحة بصوت متحشرج: «ابتعد».

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة، وبدت أسنانه بيضاً، وشفتاه كدم قرمزي متجمد. وودّت لو يقول أي كلمة، ورغبت أشدّ الرغبة في سماع صوته الذي لا بد من ان يكون كهدير موج يرتطم بصخور شاطىء متناه في البعد.

وحاولت سميحة الهرب حينما ابتدأ يدنو منها، وقالت ثانية: «ابتعد».

فلم يأبه الرجل لها، وتابع اقترابه منها، ومدّ يداً لها خمس أصابع، ولمس شعرها المتهدل، وتحركت شفتاه دون ان ينبعث منهما أي صوت، ولكن سميحة كانت متيقنة انه قال لها: «حبيبتي».

واشتدّ صراخ المعتوه. وأمسك الرجل الغامض بيد سميحة، وجرّها، فتبعته دون مقاومة بينما هيمنت عليها طمأنينة عذبة. انها تعرف يده.. تعرفها جيداً. أين رأتها من قبل؟ لم تذكر. حاولت التذكر. وقادها الرجل، واجتازا معاً السهول الشاسعة حيث يتلاقى ثلج الشتاء وشمس الصيف وزهر الربيع، ووصلا إلى منزل متهدم. سميحة تعرف

www.alkottob.com

المنزل، ولقد أبصرته من قبل. أين أين؟ وانهزمت العتمة، وبدأت تتذكر بسرعة. إنه منزل متهدم مهجور كان يقبع كشبح في فم الزقاق أيام كانت صغيرة السن.

وتطلعت إلى الرجل، فوجدته قد تبدل متخلياً عن فتوته وأمسى كهلاً، فعرفته حالاً، ولقد كان عمرها لا يتجاوز الثانية عشرة حين كانت عائدة إلى البيت، وكانت آنئذٍ عتمة المساء بدأت بالانسياب في الطرقات. وعندما وصلت إلى قرب المنزل المتهدم المهجور، اعترض طريقها رجل كهل، وأمسك يدها بقسوة، وقال لها بصوت مبحوح: «سأقتلك إذا صرخت».

وجرّها بسرعة إلى داخل المنزل، وعرّاها من ثيابها. وكان نهداها وقتئذٍ فجّين، ولكن لحمها ناعم مكتنز، وكان جسد الكهل له رائحة حريق منطفىء.

ورمقت سميحة الرجل الكهل بلهفة، فقد عاد إليها بعد انتظار مديد. ورغبت في ان تهرع نحوه، وتلقي رأسها على صدره، ولكنها سمعته يقول لها: «سأقتلك إذا صرخت».

ولم تقاوم وإنما كانت مسحورة بالحنو العجيب المنهمر في أعماقها، وظلت مستلقية على ظهرها منتظرة جسد كهل له رائحة حريق منطفىء.

وتصاعد مجدداً صراخ المعتوه. وحاولت سميحة المستلقية على الأريكة تجاهله غير أن الصراخ استمر يتعاظم ويزداد ضراوة، فلم تستطع الصمود، فهبّت واقفة، وهرولت نحو النافذة، وأطلت على الزقاق، فوجدت المعتوه

www.alkottob.com

ما زال قاعداً على الأرض، وكان يقاوم الحلاق والبقال اللذين يحاولان تضميد جرح رأسه وربطه بقطعة قماش بيضاء بينما تحوّل صراخه عويلاً حيوانياً شرساً.

ولم تحاول سميحة الرجوع إلى الاستلقاء على الأريكة. وكان بمقدورها عندئذٍ الاختباء في المنزل المتهدم المهجور حيث عتمة المساء والرجل الكهل.

وحدقت إلى المعتوه الذي كان يتمرغ على الأرض محركاً ذراعيه ورجليه، وأحست ان الرجل الكهل رحل، وهو يحتضر في مكان ناء. وتمنت لو يتحول المعتوه طوفاناً من المدى يجتاح جسدها ممزقاً لحمها على مهل ثم يتركها وجهاً لوجه مع الرعب الهرم.

وعادت سميحة إلى التمدد على الأريكة، وأطبقت جفنيها: ستكون ذات يوم وحيدة في البيت، وستغري المعتوه بالدخول، وستتعرى من ثيابها دون خجل، وستعطي نهدها لفم المعتوه، وستضحك ثملة حين يحاول قضم حلمته، وستطلب منه بصوت لاهث ان يعض لحمها ويغرس أسنانه فيه حتى ينبثق منه الدم ويلطخ شفتيه، وعندئذٍ ستلعق بلسانها شفتيه بكثير من الضراوة والحنان.

وتوقفت الفأس لحظات عن الانقضاض، ثم تعالى صوت وقوع شجرة الليمون وارتطامها بأرض باحة البيت في ضجة ما لبثت ان اضمحلت.

وابتسمت سميحة إذ تذكرت القمر، فلن يرعبها مطلقاً بعد ان شاهدت وجهه دون أقنعة.

www.alkottob.com

رجل غاضب

www.alkottob.com

رجال يرتعدون متلاصقين، ينصتون لدوي انفجارات نائية، وتحدق أعينهم بتحفز وحذر إلى رجل صارم الوجه، يقف قبالتهم مشدود القامة، منفرج القدمين، ويحاول ألاّ يستسلم لغضب جامح، وقد قال بصوت بذل جهده كي يكون هادئاً: «أعرف ان مهمتي ستكون شاقة، لكنها ستصبح سهلة إذا تعاونتم معي. مهمتي الآن إقناعكم ان الموت غير مخيف ولا يستحق ان تهربوا منه».

لم يتفوّه واحد من الرجال بكلمة، فعضّ الرجل الغاضب بأسنانه على شفته السفلى، وتأمل الرجال بعينين حانقتين، ثم قال بلهجة خشنة قاسية: «تكلموا. يجب ان تتكلموا».

بقي الرجال صامتين، فأشار الرجل الغاضب بيده نحو رجل طويل القامة، عريض الكتفين، وقال له آمراً: «أنت. تكلَّم».

-: «ماذا أقول؟»

www.alkottob.com

ـ: «قل ما تشاء».

ـ: «أنا متزوج. وإذا متّ، فمن سيطعم امرأتي؟».

وبلل شفتيه بلسانه ثم أضاف بخجل: «أنا غيور وأحب امرأتي ولا أرغب في تركها لرجل آخر».

فضحك الرجل الغاضب ضحكة هازئة، وأشار إلى رجل ثانٍ متسائلاً: «وأنت؟».

ـ: «أنا لي خمسة أولاد، ومن واجبي رعايتهم حتى يكبروا ويصبحوا شباناً».

ـ: «وأنت؟».

ـ: «ليس في حياتي سوى البؤس، فلماذا أموت؟».

ـ: «وأنت؟».

ـ: «أنا لا أريد ان أموت لأني أحب الحياة حباً لا يوصف».

فصاح الرجل الغاضب بصوت متهدج: «ولأنك تحب الحياة، يجب ان تموت».

ورمق الرجال بنظرة لوم وتأنيب، ثم تابع الكلام بصوت بارد: «أنتم جبناء، وإذا لم تختاروا الموت فستفقدون ما تحبون».

هيمن سكون غريب، وفجأة زعق واحد من الرجال: «أنت تكرهنا».

وعمّ ضجيج حاد انبثقت منه أصوات نزقة:

«لا نريد ان نموت».

www.alkottob.com

«لن نموت كالكلاب».

«الحياة أفضل من القبر».

«مت وحدك».

«جبان حيّ أفضل من شجاع ميت».

فصرخ الرجل الغاضب متضرّعاً: «أنا أحبكم.. أحب كل الناس. ولأني أحبكم أريد ان تجابهوا العدو وتموتوا».

«هيا اذهب ومت إذا كنت غير خائف من الموت».

دسّ الرجل الغاضب يده في جيبه، وأخرج منه مسدساً قاتم اللون، فبادر الرجال إلى التراجع بحركة وجلة، فصاح الرجل الغاضب: «لا ترتعبوا. لن أؤذيكم. أنتم ستقتلون في مخادع النوم».

ورفع مسدسه، وألصق فوهته بصدغه، وقال مبتسماً: «الموت كما قلت لكم تافه سخيف».

وضغط باصبع هادئة زناد المسدس، فدوى طلق ناري، وتهاوى الرجل الغاضب دامي الرأس بينما كان دويّ الانفجارات يقترب رويداً رويداً منذراً محاصراً.

www.alkottob.com

الخراف

www.alkottob.com

حملق عدد من رجال حارة السعدي مذهولين يوم أبصروا عائشة الصبية ابنة عبد الله الحلبي تمشي مرفوعة الرأس دون ملاءة سوداء، لا يغطي رأسها سوى منديل ذي لونين أسود وأحمر.

ولما غابت عائشة عن أعينهم، هزّوا رؤوسهم آسفين، واستولى عليهم استنكار شديد. وما إن أقبل الليل حتى هرعوا إلى بيت الشيخ محمد، وقبّلوا يده المعروقة، ورمقوا بحب وإجلال لحيته البيضاء الطويلة، ثم تحدث أحدهم عن فعلة عائشة ابنة عبد الله الحلبي، فدهش الشيخ محمد وقال: «لا أصدق ما أسمع. عبد الله الحلبي رجل ورع صالح لا تفوته صلاة. صدق من قال إن الوردة تلد شوكة».

فقال أحد الرجال بلهجة ضارعة: «ماذا نفعل يا شيخنا؟ أرشِدْنا».

قال الشيخ محمد: «تحدثوا إلى أبيها أو إلى أخيها».

وتحدث الرجال في اليوم الثاني إلى أخيها الشاب، فقالوا

www.alkottob.com

له إن أخته شوهدت تسير في الحارة دون ملاءة، فقال لهم إن أخته صارت طالبة في الجامعة، ومن غير المعقول ان تذهب إلى الجامعة مرتدية الملاءة السوداء، فقالوا له إن الحارة مستاءة من فعلة أخته فكل نساء الحارة يرتدين الملاءات، فقال لهم إن عليهم الاهتمام بزوجاتهم وبناتهم، أما عائشة فهي أخته وليست أختهم، فتركوه حانقين قائلين إنه شاب طائش أحمق، وصمموا على التحدث إلى أبيها، ولكن الأب العجوز قال لهم بلهجة مؤنبة إنه ربى ابنته خير تربية، ويثق بأخلاقها وسلوكها، وقال لهم أيضاً متسائلاً بهزء: «إذا ارتدت عاهرة ملاءة، فهل تصير شريفة فاضلة؟».

فاغتمّ الرجال، وتلاقوا مساء في بيت الشيخ محمد، وأبلغوه بما جرى، فهزّ رأسه بحزن، وقال بصوت متهدج: «في آخر الزمان.. النساء يهجرن الملاءات ويمشين في الطرقات حاسرات الرؤوس، مرتديات ثياب الرجال، فلا يستطيع المرء التفريق بين الرجل والمرأة».

ونظر الشيخ محمد إلى السقف، وقال بصوت متوسل: «يا رب نجّنا من ذلك اليوم المشؤوم».

تمتم الرجال بصوت واحد: «آمين».

وصاح رجل بنزق: «حارتنا شريفة وستبقى شريفة».

قال الشيخ محمد: «المرأة مخلوق فاسد، وإذا أفلت زمامها عاثت فساداً وخراباً».

www.alkottob.com

قال أحد الرجال: «إذا سكتنا اليوم، فسيأتي يوم نجد فيه نساءنا كعائشة».

قال الشيخ محمد: «أنا رجل عجوز، إذا عشت اليوم، فلن أعيش غداً، وإذا عشت هذا الاسبوع، فلن أعيش الأسبوع القادم، وإذا عشت هذا الشهر، فلن أعيش الشهر الذي يليه».

قال رجل: «لك العمر الطويل يا شيخنا».

وقال رجل ثانٍ: «أبقاك الله نوراً لنا ولحارتنا».

وتابع الشيخ محمد كلامه، فقال: «لا مهرب من الموت، وكل مخلوق محكوم عليه بالفناء. وأنا اليوم بلغت من العمر عتياً، وكل خطوة أخطوها تدنيني من القبر، والعاقل العاقل في هذه الحال ينبذ أمور الحياة الدنيا، ويستعد للرحيل إلى الحياة الثانية، الحياة الخالدة غير الفانية، ولكن كلمة الحق يجب ان تقال. إن الملاءة للمرأة حماية لها وللرجل. تخيّلوا ما سيحدث إذا مشت المرأة دون ملاءة. سيظهر جسدها بكل تقاطيعه، وإذا نظر إليه الرجل، فسيغويه ابليس، ويجعله راغبا في الزنا».

وسعل الشيخ محمد سعالاً متواصلاً. وحين توقف سعاله، قال: «يا أولادي واخواني، الساكت عن المنكر كمرتكب المنكر، فاعملوا ما ترونه صواباً، والله الموفق».

تناقش الرجال فيما يجب عليهم فعله، وارتأوا أخيراً ان عائلة الحلبي يجب ان تطرد من الحارة.

وفي اليوم التالي، وبينما كانت عائشة تتجه نحو بيتها،

www.alkottob.com

اعترض طريقها ثلاثة شبان، وسألها واحد منهم: «إلى أين ذاهبة؟».

قالت عائشة مقطبة الجبين: «ولماذا تسأل؟».

قال الشاب: «السؤال ممنوع؟».

قالت عائشة: «أنا ذاهبة إلى البيت».

قال الشاب: «البيت لن يهرب. ما رأيك في الذهاب معنا؟».

قال الشاب الثاني: «انظري إلينا. نحن ثلاثة، فتخيّلي كم ستسرّين معنا».

قالت عائشة بحنق: «استحوا».

قال الشاب الثالث: «لماذا الغضب؟ سندفع لك كما يدفع غيرنا بل سندفع أكثر».

قالت عائشة: «أهكذا تتكلمون مع بنت حارتكم؟!».

قال الشاب الأول: «أنت بنت حارتنا؟! أف! ظننا أنك أجنبية، فبنات حارتنا لا يلبسن كما تلبسين».

قال الشاب الثالث: «اتركوها اليوم يا شباب. غداً سنراها، وتذهب معنا شاءت أم أبت».

وابتعد الشبان الثلاثة عن عائشة وهم يتضاحكون، وسارت عائشة بخطى سريعة، ودخلت إلى البيت، ولكنها ما إن أغلقت الباب خلفها حتى بكت بصوت مرتفع، فهرعت إليها أمها وأخوها، وسألاها عما بها، فأخبرتهما بما حدث، فبادر الأخ إلى مغادرة البيت، فألفى الشبان الثلاثة

www.alkottob.com

ما زالو يقفون قريباً من البيت يتحدثون ويضحكون بمرح، فاندفع نحوهم غاضباً، وصاح بهم: «ألا تخجلون؟ لماذا تحرشتم بأختي؟ أليس لكم أخوات بنات؟!».

فقال له أحد الشبان: «اخرس. واحد مثلك حقير لا يجوز له الكلام عن أخواتنا الشريفات».

فانقضَّ الأخ على الشاب، وصفعه صفعة قوية، فتقهقر الشاب قليلاً، وانتضى مدية، فهمّ الأخ بالوثوب عليه، ولكن الشابين أمسكا به ومنعاه من الحركة، فبات صدره مباحاً للمدية.

ولما غابت الشمس وأقبل ظلام الليل، اصطفّ رجال حارة السعدي وراء الشيخ محمد، وأدوا صلاة العشاء بخشوع بينما كانت عائلة الحلبي ترتدي ثياب الحداد.

www.alkottob.com

الراية
السوداء

www.alkottob.com
www.alkottob.com

يسير غسان في الشوارع المستسلمة لظلمة منتصف الليل شعراً أسود، ويداً تحمل كتاباً، وجسداً يغمره فرح عصفور يتواثب تحت سماء عميقة الزرقة، فالهواء يقول: «أحب الأفلام الهزلية»، والقمر يقول: «الصداع لا يفارقني والصيدليات مقفلة الأبواب»، والأشجار تقول: «أحلم بالرحيل في القطارات»، والمصابيح الكهربائية تقول: «آه ما أروع رائحة الليمون».

ويتخيّل غسان معلم مدرسة عجوزاً يقول بصوت متهدج مبحوح: «في قديم الزمان كان قمران يبزغان على الأرض، وقد تشاجرا يوماً، فتفتّت القمر المهزوم قطعاً صغيرة سمِّيت فيما بعد بالنجوم».

ويتخيّل غسان نهراً يقف أمام المرآة، ويحدق مكتئباً إلى وجهه المتجعد وشعره الأشيب.

وينأى غسان رويداً رويداً عن الشوارع ومبانيها الحجرية، ويسير في الأزقة الضيقة الخاوية قاصداً بيته،

www.alkottob.com

ويتخيّل آنئذٍ رجالاً مقطوعي الرؤوس يحملون رايات سوداً ويصرخون ضارعين: «ماء ماء».

ويبلغ غسان أول حارته، وهناك تتباطأ خطواته، وينصت توّاقاً إلى سماع صرخة تنبثق من البيوت الطينية منادية الشمس والعاصفة، ويمر بالقرب من رجلين يرتديان الشراويل، ويقفان أمام باب أحد البيوت متحدثين بأصوات مرتفعة، مطلقين ضحكات صاخبة، ولكنهما يصمتان فجأة، ثم يصيح أحدهما بصوت أجش ممطوط منادياً غسان: «يا أخ.. يا أخ».

فيتوقف غسان عن السير، ويلتفت مستغرباً ليجد الرجلين يدنوان منه بخطى مترنحة تفوح منهما رائحة خمر، ويبادره أحد الرجلين قائلاً بصوت حانق: «السلام لله. ماذا ستخسر لو قلت السلام عليكم أو مساء الخير؟».

يرتبك غسان، ويحاول الابتسام، ويهمّ بالرد، ولكن الرجل الثاني يقول لرفيقه: «لا تغلط يا صياح. الناس الأكابر لا يقولون السلام عليكم. عيب. يقولون بونسوار».

يقول صياح: «ليقل لنا بونسوار. الذين يقول لهم بونسوار ليسوا أحسن منا. قل يا قاسم.. هل هم أحسن منا؟».

يقول قاسم فوراً: «أحذيتنا أفضل من أجدادهم».

فيقول صياح لغسان بنزق: «تكلم.. هل الذين تقول لهم بونسوار أحسن منا؟».

www.alkottob.com

يقول غسان باضطراب: «عفوا. كنت أفكّر ولم أتنبه لكما».

فيلتفت صياح إلى قاسم ويقول له: «أسمعت؟ الأخ كان يفكر».

يقول قاسم لغسان: «قل لنا ولا داعي للخجل. بماذا كنت تفكر؟».

يقول صياح: «انه لا يفكر مثلنا.. بالنساء. انه يفكر باختراع صاروخ.. باختراع قنبلة ذرية.. باختراع مشط».

يقول غسان: «المسألة بسيطة. لم أسلِّم عليكما لأني لا أعرفكما».

فيقول صياح باستنكار: «ماذا تقول؟ ألا تعرفنا؟!».

يقول غسان: «أنا أعرف انكما من أهل الحارة».

يقول صياح: «ونحن طبعاً لا نستحق السلام لأننا من أهل الحارة؟!».

يقول غسان: «غلطان. أخطأت في تفسير كلامي».

فيقول صياح: «نعم أنا غلطان وحمار لا أفهم. تفضل فسِّر».

يقول غسان: «أنا مجرد ساكن جديد في الحارة».

فيسأله قاسم هازئاً: «وكيف رضيت بالسكن في حارتنا؟!».

يقول غسان: «ولماذا لا أسكن فيها؟».

www.alkottob.com

ويبتلع لعابه بصعوبة ثم يضيف بصوت خفيض: «أنا كأهل الحارة».

يقول قاسم لصياح: «الاستاذ خجل لأنه مثلنا».

فيصرخ صياح: «انه ليس مثلنا ولن يكون مثلنا. نحن رجال، أما هو فامرأة».

يهمّ غسان باستئناف السير، ولكن صياح يعترض طريقه، ويدفعه في صدره دفعة قوية تجعله يرتطم بالحائط، ويقول له: «إلى أين؟! لا إذن ولا استئذان. أنت تحكي مع رجال».

يقول غسان: «ماذا تريدان مني؟».

فيقول قاسم لصياح: «اتركه. يبدو ان حديثنا لم يعجبه».

يقول صياح لغسان: «إذا تضايقت منا فتفضل اضربنا. ما بك؟ ألا تعرف كيف تضرب؟».

يقول غسان: «أنا لا أحب ان أضرب أحداً».

يقول صياح: «وتقول هذا الكلام كأنك فتحت اليمن؟! يجب ان تخجل وتدفن نفسك في مزبلة. الرجل الذي لا يضرب ليس رجلاً».

ويلكز قاسم خاصرة غسان، ويسأله: «ماذا تحمل في يدك؟».

يقول غسان: «كتابا».

www.alkottob.com

يقول قاسم بحدّة: «ومن قال لك إني أعمى لا أبصر؟ أعرف انه كتاب أم تظن اني لم أشاهد كتاباً؟!».

يقول غسان: «أنت سألتني وأنا..».

فيقاطعه قاسم قائلاً: «سألتك عما في الكتاب».

يقول غسان: «الكتاب ديوان شعر».

يقول صياح لقاسم: «سمعت؟ الاستاذ أكابر فعلاً، لا يقرأ قصة عنترة، لا يقرأ سوى الشعر».

فيقول قاسم لغسان: «ألا تستطيع المشي بلا كتاب؟ دائماً نشاهدك حاملاً الكتب».

يقول غسان: «أنا أحب قراءة الكتب».

يقول صياح: «ما شاء الله. لا أحد في الدنيا يقرأ سوى الاستاذ».

ويضع قاسم يده على كتف غسان، ويقول له بلهجة ودّية: «هيا أخبرني.. لماذا تحمل الكتاب في الليل؟ للتفاخر والتباهي؟!».

فلا يجيب غسان، وينتزع صياح الكتاب من غسان بحركة مفاجئة، ويقلب صفحاته ثم يمزقه بعصبية، ويرميه أرضاً بينما يزداد التصاق غسان بالحائط.

ويقول قاسم لصياح: «أرأيت؟ انه امرأة، ولو كان رجلاً لما سكت».

يهزّ صياح رأسه، ويقول: «أنا أعرفهم جيداً هؤلاء الذين

www.alkottob.com

يلبسون البنطلونات. لهم شوارب، ولكن بنت البيت أكثر رجولة منهم».

يقول غسان: «لماذا السبّ؟ هل آذيتكما؟».

يقول قاسم: «هذا ما ينقصنا.. أن يؤذينا كلب مثلك».

يقول غسان بصوت خافت محتج: «لا داعي لهذا الكلام».

فيصفق قاسم، ويقول: «عظيم! بدأ الكلب يهزّ ذنبه!»

يقول صياح لقاسم: «أخته أيضاً أكابر مثله، لا تلبس الملاءة، وتمشي مرفوعة الأنف كأنها تشم دائماً رائحة كريهة».

فيصيح قاسم: «آخ يا صياح لا تذكّرني».

وينظر إلى السماء ويقول: «يا رب يا كريم أعطني ليلة واحدة معها ثم علقني في الصباح على المشنقة».

يقول غسان بصوت غاضب: «ما هذا الكلام؟!».

فينتضي صياح خنجراً طويل النصل، ويقول لغسان: «ما هذا؟ احزر؟».

فيتزايد التصاق غسان بالحائط، ويضحك قاسم ويقول: «اتركه يا صياح اتركه. خاف المسكين وصار وجهه كالليمونة».

يقول صياح: «لن أتركه إلاّ إذا جاوب».

يقول قاسم لغسان: «هيّا انطق».

يقول غسان: «هذا طبعاً خنجر».

www.alkottob.com

فيصيح قاسم: «الاستاذ مثقف فعلاً».

ويقول صياح لغسان: «أتشتريه؟».

يقول غسان: «وماذا سأفعل به؟».

فيقول صياح: «الرجل الذي لا يملك خنجراً لا يساوي قشرة بصلة، ويجب ان تصير رجلاً».

يقول قاسم: «الله الله يا صياح! كلامك سكّر. كل من يسكن في حارتنا يجب ان يكون رجلاً. ونحن الآن سنعلمه كيف يصير رجلاً».

ويوجّه قاسم إلى وجه غسان صفعة قوية، ويقول له: «هيا اصفعني. يجب ان تصفع من يصفعك ومن لا يصفعك لا أن تقف كالحائط».

ويبصق صياح في وجه غسان، فلا يحاول غسان التحرك أو مسح البصاق عن وجهه، فيصرخ صياح بغضب: «تحرّك يا كلب. ألست من لحم ودم؟».

يقول قاسم: «لا تتعب يا صياح، فلا شيء تحت ثيابه سوى ورق وكتب».

فيهوي صياح بخنجره على صدر غسان ثم يرتفع الخنجر مبتلاً بالدم. ويصرخ قاسم بصوت هلع: «اتركه يا صياح.. ستقتله».

ويهوي الخنجر ثانية، فيحاول غسان الامساك بنصله ومنعه من الوصول إلى جسده، ولكن النصل يخترق اليد ويرغمها على افلاته.

وتتالى الطعنات سريعة متلاحقة.

www.alkottob.com

ويبتعد الحائط عن ظهر غسان، فينزلق غسان ويتكوم على الأرض وهو يغمغم بصوت ملطخ بالدم: «آخ، آخ».

ويقعي صياح بجوار غسان وهو يلهث، فيصيح قاسم: «ماذا تفعل؟ لنهرب».

ويمسك صياح بشعر غسان، ويشده إلى الخلف، فيرتمي غسان على ظهره تاركاً عنقه لحد الخنجر يخترقه بحركة عنيفة ضارية فاصلاً الرأس عن الجسم.

وعندئذٍ حمل غسان راية سوداء، وصرخ مطالباً بالماء، وركض محاولاً اللحاق بالرجال الذين يحملون الرايات السود.

www.alkottob.com

أرض
صلبة صغيرة

www.alkottob.com

www.alkottob.com

كان أحمد وعصام صديقين ما زالا في مقتبل العمر، يسكنان معاً في غرفة واحدة في بيت صاحبته امرأة ميّت زوجها، وجهها ليس قمراً لكن جسدها مفعم بالأنوثة. وكانت الغرفة تحتوي سريرين ومنضدة خشبية وكرسياً واحداً، وكان ثمة صور نساء منتزعة من المجلات، ملصقة بالجدران دون نظام.

وكان أحمد وعصام مؤمنين ان الأرض ليست كروية، وقد تناقشا منذ الصباح حتى الظهر، ولم يتمكنا من العثور على برهان مقنع.

وكانت الشمس تسطع بحدّة خارج غرفتهما لحظة دنا أحمد من النافذة وأزاح ستارتها قليلاً بحركة حذرة متوجسة وقال: «صاحبة البيت بدأت تغسل».

فأسرع عصام نحو النافذة، وطفق يختلس النظرات إلى صاحبة البيت التي كانت تجلس في الباحة على مقعد قصير القوائم، وأمامه طبق كبير معدني تتصاعد منه أبخرة الماء

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الساخن وتتكوّم فيه الثياب المبللة تجلِّلها رغوة الصابون البيضاء.

وكانت صاحبة البيت تدندن بأغنية ما وهي منهمكة في دعك الثياب وعصرها ثم وضعها في طبق آخر بجانبها. وانحسر ثوبها بغتة عن فخذيها بينما هي تتحرك، فشهق أحمد شهقة خافتة، وقال: «يا لها من بضاعة!».

:- «لا تتكلم كتاجر عتيق».

:- «كل شيء في العالم بضاعة لها ثمن».

:- «إذن أنت بضاعة من النوع الرديء».

:- «وأنت جبان. الحقيقة سكين فولاذية حين تنفذ إلى صميم قلبك ستبصر وأنت تتألم وجه الأرض الحقيقي».

:- «المرأة ستظل مخلوقاً جميلاً».

:- «كن رجلاً واترك ثدي أمك».

:- «انظر إلى جارتنا. إنها كالقطة».

:- «القطة لئيمة جداً».

:- «الكلاب أفضل من القطط».

:- «اذهب واعشق كلبة».

:- «انظر انظر. أشرقت الشمس».

وكان الثوب تلك اللحظة قد ازداد انحساره عن فخذي صاحبة البيت، فبدتا عاريتين شديدتي البياض، تتوهجان ساحرتين تحت الشمس، وتبللهما قطرات من الماء. ومسحت صاحبة البيت يديها المبتلتين بثوب جاف،

www.alkottob.com

وأزاحت عن عينيها خصلة شعر سوداء ثم غمست يديها ثانية في ماء الطبق، ولم تحاول ان تغطي فخذيها بالثوب.

-: «انظر انظر إلى وجهها. إنها تبتسم».

-: «إنها تعرف أننا نراقبها».

-: «سنهجم على غرفتها في الليل».

-: «سنجدها نائمة».

-: «سنربط فمها بقطعة قماش».

-: «سنحرمُ تقبيل فمها».

-: «سنضحي بجزء كي نفوز بأجزاء أخرى أكثر أهمية. هذه هي الحياة».

-: «سنوثقها بحبل».

-: «ستكون كالميتة».

-: «ولكن لحمها سيظل ساخناً».

-: «من سيكون الأول؟».

-: «أنا».

-: «لا. أنا الأول».

-: «سنهجم نحن الاثنين».

-: «ستكون معركة».

-: «معركة تاريخية».

-: «تاريخية؟! لماذا؟».

-: «سنمزق ثيابها».

www.alkottob.com

.: «وإذا نزعت ثيابها دون مقاومة؟».

.: «لن نوافق. إنها غنيمة حرب».

.: «تفو».

.: «قد تشكونا».

.: «تفو».

.: «قد نهان في المحكمة».

.: «سنقول للقاضي بجسارة: هل تحيا امرأة بغير رجل؟».

.: «وسنقول له: نحن نريد منح السعادة لغيرنا».

.: «سيمنحنا ألقاباً فخمة وأوسمة».

.: «فلتسقط الألقاب والأوسمة».

.: «قد نسجن».

.: «سنتمتع في السجن بالطمأنينة، وسنحسّ هناك أننا نحيا فوق أرض صلبة، وسيكون لنا مطلب واحد فقط هو الخروج من السجن».

.: «من يدري؟! قد يعجبها عملنا، وعندئذٍ ستتعبنا كل ليلة».

.: «أهلاً بالتعب».

.: «ستصبح شحاذة».

.: «كلنا شحاذون».

.: «أنا جائع. وبودّي لو أكون شحاذاً وأطلب من

www.alkottob.com

جارتنا ان تطعمني قليلاً من مربى السفرجل الذي صنعته قبل أيام. أتذكر لونه الخمري؟».

ـ: «اسكت. انظر».

ونهضت صاحبة البيت في تلك اللحظة، وحملت الطبق الذي تكوّمت فيه الثياب المغسولة.

ـ: «ليت ثيابها كثيرة!».

ـ: «هل تريد ان تغسل الثياب حتى تموت؟».

وابتعد الصديقان عن النافذة، وابتدآ يرتديان ملابسهما، وحين انتهيا طرق أحمد باب الغرفة طرقات عديدة معلناً ان ثمة رجلاً موشكاً على الخروج فعلى النساء الاختباء.

وخرج الصديقان من البيت، وسارا صامتين في الشوارع، ثم توقفا عن المسير، ونظرا إلى امرأة جميلة الجسد والوجه تقف مرتبكة قرب شجرة، ولم تمض سوى هنيهات حتى جاءت سيارة ووقفت بحذاء الرصيف، وكان يقودها شاب وسيم الوجه، أنيق الثياب، وقد فتح باب السيارة للمرأة التي تخلصت من ارتباكها وتألق وجهها فرحاً، وصعدت إلى جوف السيارة التي هدر محركها وابتعدت مسرعة.

تبادل الصديقان النظرات دونما كلمة، واكتأب وجهاهما.

تساءل أحمد: «إلى أين نذهب؟».

فانسابت إلى مخيلة عصام الشوارع والمقاهي ودور السينما، وبدا له العالم قفصاً قضبانه من فولاذ، ولم يجد

www.alkottob.com

كلمة يقولها. وسارٍ الصديقان صامتين. وفجأة ضحك أحمد وقال متسائلاً: «هل الأرض كروية؟».

ـ: «انها ليست كروية».

ـ: «بل هي كروية».

ـ: «لا.. انها ليست كروية».

وصمتا من جديد، وانحدرا إلى شوارع حافلة بالضجيج، ودلفا إلى مطعم صغير، وأكلا برتابة ثم قصدا مقهى اعتادا التردد إليه، واحتسيا الشاي ولعبا الورق متحمسين، فخسر عصام، ثم عادا إلى الغرفة بينما كانت الشمس توشك ان تأفل، واستلقيا متجاورين على السرير، وظل السرير الآخر فارغاً.

www.alkottob.com

موت
الشعر الأسود

www.alkottob.com

[redacted]

كانت شمس الظهيرة تسطع بيضاء على حارة السعدي بينما شيخ المسجد يقول للمصلّين إن الله هو الذي خلق الرجال والنساء والأطفال والطيور والقطط والأسماك والغيوم، وهو الذي خلق أيضاً عباده الفقراء من تراب، فيهزّ الرجال رؤوسهم موافقين، فوجوههم تشبه تراباً لم تهطل فوقه قطرة مطر، وبيوتهم من تراب، ويوم يموتون يدفنون في التراب.

ولما انتهت صلاة الظهر، غادر الرجال المسجد يرين عليهم خشوع هادىء وكآبة عذبة، واتجه معظمهم إلى مقهى حارة السعدي، وهناك تكلموا عما حدث قبل أيام، فلقد قصد منذر السالم مخفر الشرطة، وأعلن مرفوع الرأس أنه ذبح أخته لأن العار في حارة السعدي لا يمحوه سوى الدم.

وهكذا فقد ماتت فطمة الفاكهة التي تحلم بها كل الأشجار، ففطمة امرأة جميلة، ولكن أجمل ما فيها شعرها

www.alkottob.com

الأسود، الماء المظلم الذي لا تتألق فيه نجمة، والخيمة التي تمنح الأمان للمطارد الخائف.

وعندما كانت فطمة صغيرة السن، كان جدّها يهوى تمشيط شعرها، وينثر خصلاته الفاحمة بزهو ونشوة، ويغمغم بإعجاب: «كنز.. كنز».

ويوم دخلت فطمة بخطى مرتبكة إلى غرفة الضيوف وهي تحمل فناجين القهوة، لفت شعرها أنظار النسوة الخاطبات، ونالت اعجابهن تواً، فتعالت الزغاريد بعد أسابيع، وصارت فطمة زوجة لمصطفى الرجل الذي يملك وجهاً لا يبتسم.

ولقد أحبَّ مصطفى فطمة وشعرها، ولكنه كان يرى في أثناء نومه حلماً واحداً، يركض فيه تحت مطر غزير من دون ان تبلله قطرة ماء.

وكان مصطفى يقول لفطمة: «أنا رجل وأنت امرأة، والمرأة يجب ان تطيع الرجل. المرأة خلقت لتكون خادمة للرجل».

فتقول له فطمة: «اني أطيعك وأفعل كل ما تريد».

فيصفعها قائلاً بنزق: «عندما أتكلم يجب ان تخرسي».

فتبكي فطمة، ولكنها كانت كعصفور صغير مرح طائش، فتكفّ عن البكاء بعد هنيهات، ثم تضحك وهي تمسح دموعها، فيغمض مصطفى عينيه، ويتخيّل فطمة تقول له بذل: «أحبّك وأموت لو هجرتني».

ولكن فطمة لم تقل له يوماً ما يتوق إليه.

www.alkottob.com

وفي يوم من الأيام دخل مصطفى متجهم الوجه إلى مقهى حارة السعدي، وقال لأخيها منذر السالم: «قبل أن تقعد كعنتر بين الرجال، اذهب وخذ أختك من بيتي».

فأحنى منذر السالم رأسه خجلاً من الرجال المحيطين به، وعضّ بقسوة على شفته، ثم نهض فجأة، وانطلق يركض في حارة السعدي.

ولما أبصرت فطمة أخاها منقضّاً عليها شاهراً سكينه، ولولت، وسارعت إلى الهرب من البيت، وركضت في أزقة حارة السعدي حاسرة الرأس، مبعثرة الشعر، وصرخت مستغيثة غير أن السكين لحقت بها وبلغت عنقها بينما كان الرجال والنساء والأطفال يقفون متجمدين شاحبي الوجوه.

وهكذا مات الشعر الأسود، ولكن فطمة لا تزال تركض في حارة السعدي، وتطرق أبواب بيوتها مستنجدة، فلا يفتح باب من الأبواب، وتتلطخ السكين بالدم.

www.alkottob.com

الاستغاثة

www.alkottob.com

[redacted]

أقبلت الاستغاثة ليلاً إلى دمشق النائمة طفلة مقطوعة الرأس واليدين، وتراباً يحترق، وطيوراً تودع أجنحتها السماء والأشجار غير أن أهل دمشق كانوا نياماً، فلم يسمع الاستغاثة سوى تمثال من نحاسٍ لرجل يشهر سيفاً، ويقف فوق قاعدة من حجر مطلاً شامخ الرأس على حديقة مبنى.

واجتاحت الاستغاثة تمثال النحاس مرّة ضارعة، ففقد صلابته شيئاً فشيئاً، ثم تحول رجلاً يمشي ويتكلم ويغضب ويصرخ.

ولقد مشى ذلك الرجل في الشوارع الخاوية المتروكة لظلمة الليل، ولكنه كفّ عن السير لما اعترض طريقه حارس ليلي، وقال له بصرامة: «قف. ماذا تحمل؟».

قال الرجل: «أحمل سيفاً».

-: «ولمن السيف؟».

-: «السيف سيفي».

www.alkottob.com

-: «وهل السيف تفاحة أو برتقالة؟ ألا تعلم أن السيف سلاح؟».

-: «أعلم طبعاً».

-: «ألا تعلم أيضاً ان القانون يحظر حمل السلاح؟».

-: «يحق لي حمل السلاح، فالسلاح جزء من مهنتي».

-: «وما مهنتك؟ تاجر أسلحة؟!».

-: «أنا وزير.. وزير الحربية».

-: «أنت؟! وزير؟!».

قال الرجل بهدوء: «نعم أنا وزير. لماذا الاستغراب؟»

فضحك الحارس، وقال: «لا بدّ أنك سكران».

-: «أنت مخطىء. أنا لست بسكران».

-: «إذن أنت كذاب».

-: «كن مؤدباً وإلاّ ندمت. أنا لم أكذب في أي يوم من الأيام».

-: «سأتغاضى عن وقاحتك وأثبت لك كذبك. اسمع. الوزير لا يمشي في آخر الليل كالشحاذ بل يركب سيارة طويلة عريضة، والوزير لا يحمل سلاحاً بل يرافقه دائماً شرطي مسلح بمسدس، والسيف الآن يكتفى بتعليقه على جدران الغرف كتحفة أثرية، ولا أحد يستخدمه كسلاح سوى ضعاف العقول».

قال الرجل باستياء: «لا يحق لك احتقار السيف، فهل نسيت أن أجدادنا أرعبوا الدنيا بسيوفهم؟».

www.alkottob.com

قال الحارس بصوت ساخر ممطوط: «إيه. رحمة الله على أجدادي وأجدادك».

ثم أضاف بلهجة جافة: «أعطني هويتك».

ـ: «لا أحمل هوية».

ـ: «لا تحمل هوية؟! ما اسمك أم انك لا تحمل أيضاً اسماً؟».

ـ: «اسمي يوسف العظمة».

ـ: «وأنت وزير؟».

ـ: «نعم أنا وزير».

ـ: «اسمع يا رجل يا خرف. الواقف أمامك ليس أمياً. في كل يوم أقرأ الجرائد وأسمع نشرات الأخبار من الراديو والتلفزيون، ولم يذكر اسمك مرة واحدة بين أسماء الوزراء».

قال يوسف العظمة بدهشة: «ماذا تقول؟! كيف لم تسمع باسمي؟ تاريخ حياتي يدرَّس في المدارس».

قال الحارس: «ما شاء الله! ما شاء الله! وماذا فعلت حتى صارت حياتك تدرس في المدارس كالجغرافيا والحساب؟ اخترعت صاروخاً؟».

قال يوسف العظمة: «أنا الذي حارب الجيش الفرنسي في ميسلون لمنعه من الوصول إلى دمشق واحتلالها. وهناك في ميسلون قُتلت».

فقال الحارس بمرح: «هكذا إذن؟! قتلت في ميسلون

www.alkottob.com

وأنت الآن تتحدث معي بعد أن هربت من القبر؟! قل لي: أين كفنك ومن أين سرقت هذه الثياب التي ترتديها؟».

لم يجب يوسف العظمة بكلمة، فنظر الحارس إلى السماء، وقال متصنّعاً الخشوع: «سبحانك يا من تحيي العظام وهي رميم».

في تلك اللحظة جاءت سيارة حمراء اللون، ووقفت بالقرب منهما، وأطلَّ من نافذتها شرطي، وقال للحارس متسائلاً: «ما الخبر؟».

قال الحارس: «الأخ يتجول وهو يحمل سيفاً ويدعي انه وزير».

قال الشرطي: «سنأخذه معنا ونريحك منه».

ثم أضاف موجهاً الكلام إلى يوسف العظمة: «هل يتفضل السيد الوزير بالركوب في سيارتنا؟».

فصعد يوسف العظمة إلى السيارة التي انطلقت تواً تسير في الشوارع مسرعة حتى بلغت مبنى عتيقاً، وعندئذٍ توقفت، واقتاد شرطي يوسف العظمة إلى غرفة رئيس المخفر.

كان رئيس المخفر رجلاً بديناً متعب الوجه، وقد ابتسم اثر سماعه ما قاله الشرطي بصوت خفيض، ثم نظر إلى يوسف العظمة متفحِّصاً، وقال له متسائلاً: «من أنت؟».

ـ: «أنا يوسف العظمة».

ـ: «وماذا تشتغل؟».

ـ: «أنا وزير الحربية».

www.alkottob.com

-: «أأنت يوسف العظمة نفسه الذي قتل في ميسلون؟».

-: «نعم. استشهدت في ميسلون وأنا أحارب الأعداء الذين كانوا يريدون احتلال البلاد».

-: «ولماذا فشلت في منعهم من احتلالها؟».

فهمّ يوسف العظمة بالجواب، ولكن جرس التلفون رنّ، فتناول رئيس المخفر السماعة، وابتدأ يتكلم.

وانفجرت قنبلة فوق أرض ميسلون، وأصابت إحدى شظاياها ساعد يوسف العظمة، فهرع إليه طبيب وشرع يضمد جرحه وهو يقول له بلهجة متوسلة: «وقوفك هنا يعرض حياتك للخطر».

-: «مهمتي اليوم أن أحارب العدو وأهلك لا أن أهرب وأنجو».

-: «ولكن قوات العدو تفوقنا سلاحاً وعدداً؟».

-: «ماذا تقترح؟».

-: «الانسحاب سيحافظ على أرواح رجالنا».

-: «إذن أنت تقترح الهرب؟!».

-: «إني أقترح الانسحاب لا الهرب».

-: «الانسحاب والهرب أمر واحد لأن الوطن في حال الانسحاب أو الهرب سيترك للعدو ليستولي عليه».

-: «سنهزم لا محالة».

-: «نعم سنهزم ونحن نحارب».

www.alkottob.com

-: «ستقتل. أنت وزير الحربية وحياتك ليست ملكاً لك. إنها ملك الوطن».

-: «أنا الآن مجرد جندي، والناس يجوعون ويدفعون ثمن خبزهم للجنود كي يموتوا وهم يدافعون عن الوطن. سأكون خائناً ولصاً إذا لم أمت اليوم».

-: «رجالنا ليسوا جنوداً مدربين على القتال».

-: «الوطن المهدد اليوم بالاحتلال وطنهم، ويجب ان يموتوا في سبيله».

وانفجرت قنبلة وسقط يوسف العظمة على الأرض ممزق الجسد.

وصاح رئيس المخفر: «تكلم.. أين تسكن؟».

قال يوسف العظمة وهو يبتسم مستغرباً: «لا بيت لي».

قال رئيس المخفر: «إذن ستنام الليلة في مكان يليق بك».

ثم تحدث إلى الشرطي همساً، وبعدئذٍ دنا الشرطي من يوسف العظمة، وقال له وهو يربت بيده على كتفه: «هل يسمح السيد الوزير بتسليمنا سيفه؟».

-: «السيف لا يتخلّى عنه إلاّ في حال الاستسلام أو الموت».

-: «اطمئن. سنعيده إليك صباح غد».

فقطب يوسف العظمة جبينه مفكراً، ثم سار بخطى وئيدة نحو طاولة رئيس المخفر، ووضع سيفه على سطحها

www.alkottob.com

وهو يقول بصوت كئيب: «اني أتخلى لكم عن سيفي لأنكم من أبناء بلدي».

فقال له الشرطي: «والآن تفضل بمرافقتي».

وعاد يوسف العظمة ثانية إلى السيارة الحمراء التي انطلقت مرة أخرى تسير في الشوارع بأقصى سرعة، ثم توقفت بعد دقائق أمام بناية تحيطها أشجار وأسوار.

ونزل الشرطي من السيارة، وغاب في جوف البناية ليرجع بعد قليل وبرفقته رجل يرتدي ثياباً بيضاً.

قال الرجل ذو الثياب البيض ليوسف العظمة: «هل يسمح لي السيد الوزير بإرشاده إلى غرفته التي سينام فيها الليلة؟».

فهزّ يوسف العظمة رأسه موافقاً، ووجد نفسه بعد هنيهات واقفاً في غرفة صغيرة، فقال للرجل ذي الثياب البيض الذي كان يهمّ بالخروج من الغرفة: «أين أنا؟».

قال الرجل: «أنت طبعاً في أفخم فندق في البلد».

ثم غادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه بحركة سريعة عنيفة.

دهش يوسف العظمة، وتجوّل في الغرفة قليلاً ثم اتجه إلى الباب وحاول فتحه، فألفاه مقفلاً. وعندئذٍ أقبلت الاستغاثة من أرض يحتلها الأعداء، وتغلغلت في هواء الغرفة، فارتجف يوسف العظمة، واندفع نحو نافذة صغيرة، وأمسكت أصابعه بقضبانها، وتطلّع إلى الخارج، فإذا السماء مغطاة بالسحب السود.

وسمع صوتاً يقول له: «ستقتل.. ستسجن.. اهرب».

www.alkottob.com

فقال يوسف العظمة بنزق: «السجن للرجال، والموت لا مهرب منه».

وتهالك على الأرض ممزق الجسد، وتحلق حوله الأعداء المنتصرون، فها هو يوسف العظمة سقط أسيراً.

وأغمض يوسف العظمة عينيه، وأحسّ بأن شرايينه تمتلك آلاف الأجنحة التواقة إلى فضاء رحب، فأطلق استغاثة التقت بالاستغاثة الآتية من أرض يحتلها الأعداء، وامتزجتا في صراخ مديد تبدد في ظلمة الليل المهيمن على دمشق النائمة.

www.alkottob.com

الحفرة

www.alkottob.com

نام العجوز، وعندئذٍ دنا منه رجل ذو ثياب خضر، وقال له بلهجة آمرة: «اتبعني».

ومشى متمهلاً وقوراً، فتبعه العجوز منكس الرأس، ولكن ذا الثياب الخضر ما لبث ان انطلق يركض بسرعة، فحاول العجوز اللحاق به، فأخفق، ونأى عنه ذو الثياب الخضر، فتوقف عن المسير وهو يلهث متعباً حائراً مضطرباً، ثم تنبه بغتة لبنت صغيرة تقف بالقرب منه، وترمقه بفضول، وكان ثوبها يكشف عن لحم ناصع البياض، وشعرها أسود طويلاً يتناثر متهدلاً على كتفيها، فسألها: «ما اسمك يا بنت؟».

قالت البنت: «اسمي نوال».

قال العجوز باستغراب وخوف: «اسمك نوال؟!».

لم تفه البنت بكلمة انما ندت عنها شهقة ذليلة، وحدقت عيناها إلى رجل متجهم الوجه خرج من أحد البيوت وهجم عليها وطفق يضربها وهو يصرخ بنزق وشراسة: «ألم أحذّرك من التكلم مع الرجال؟».

www.alkottob.com

قال العجوز: «ولكنها صغيرة».

فنظر الرجل إلى العجوز بعينين داميتين، وقال له: «عائلتنا شريفة ولا وجود فيها لبنات يتكلمن مع رجال».

وجرّ البنت إلى داخل البيت صافقاً الباب خلفه بشدة، وبقي العجوز وحده في الزقاق الخاوي يقاوم التعب والإعياء اللذين دهماه، ووجد نفسه ينزلق إلى أسفل ويقعد على الأرض ويسند ظهره إلى الحائط، ولكنه ما إن أغمض عينيه حتى تناهت إلى سمعه ضحكة امرأة، فحاول فتح عينيه غير أنهما ظلتا مطبقتين.

وتعالت ضحكة المرأة مرة أخرى عذبة خافتة شبيهة بارتجاف جناحي طائر صغير أبيض، فنهض العجوز يعذبه شوق إلى رؤية المرأة التي تضحك، ومدّ يديه إلى الأمام محاولاً الإمساك بها، ولكن يديه بقيتا فارغتين.

وبذل جهداً مستميتاً حتى تمكّن من فتح عينيه، وتلفّت فيما حوله بلهفة، فلم يعثر على المرأة إنما شاهد رجلين يسيران بخطوات متثاقلة وهما يحملان تابوتاً شاحب الخشب، وعندما اقتربا منه، وضعا التابوت على الأرض، وأزاحا غطاءه، فأبصر العجوز امرأة ملطخة بالدم ترقد بسكون في قاع التابوت. قال أحد الرجلين للعجوز مشيراً إلى المرأة: «يجب ان تتزوج منها».

فحملق العجوز إلى المرأة بذعر، وقال: «لا أريد الزواج».

قال الرجل: «ولكنك وعدتها بالزواج».

قال العجوز: «أنا لا أعرفها ولم أرها من قبل».

www.alkottob.com

ضحك الرجل ضحكة قصيرة ساخرة، وقال: «كيف تزعم انك لا تعرفها مع أنك أنت الذي قتلها؟! اسمها نوال. ألا تتذكرها؟».

قال العجوز فوراً: «أنا لا أعرف امرأة اسمها نوال ولم أقتل أحداً».

قال الرجل للمرأة المسجاة في التابوت: «تكلمي يا نوال».

تركت نوال التابوت، ووقفت يسيل الدم من جرح عميق في عنقها، وأشارت باصبع ثابتة نحو العجوز، وقالت بصوت متهدج: «هذا الذي قتلني».

قال الرجل: «ولكنه يدّعي أنه لا يعرفك».

قالت نوال: «لقد قال لي إنه يحبني وأخذني إلى بيت خالٍ، وهناك قتلني».

صاح العجوز: «أنا لم أقتلك. أخوك هو الذي قتلك».

قالت نوال: «قتلني أخي وقال إن العار يجب ان يمحى».

قال الرجل لنوال وهو يشير إلى العجوز: «هل تذهبين معه ثانية إلى بيته؟».

فهزّت نوال رأسها بالايجاب، وقالت بخجل: «ماذا أفعل؟ أنا امرأة».

صفعها الرجل بحركة حاقدة، فلم تأبه له، وحدقت إلى العجوز بعينين حزينتين، وقالت له متسائلة بحنو: «أنسيتني؟!».

www.alkottob.com

همّ العجوز ان يقول لها بصوت مرتجف إنه أحرق القطط والغيوم وأشجار الليمون، وإنه كتب اسمها على كل جدران البيوت منادياً بضراعة نسياناً لم يأت، ولكن رغبة ذليلة في البكاء خنقت صوته، فاندفع نحو نوال، واحتضنها بين ذراعيه الهزيلتين، وألصق فمه بجرح عنقها، فتدفق الدم إلى فمه منساباً إلى معدته، فترنح يغمره وهن حادّ مؤلم غير انه ظل متشبثاً بنوال التي انقضّ عليها شاب يحمل سكيناً، ولفّ شعرها الطويل حول رسغه، وانهال عليها طعناً بسكينه بينما كانت تغمغم بصوت خفيض متوسل: «أخي أخي».

وركض العجوز هارباً من صوت نوال، ولما بلغ بيته، وجد الباب مواربا ينبثق من خلفه عويل مبهم، فدلف مسرعاً إلى الداخل، فرأى أخته تبكي، فسألها: «ما الذي حدث؟ تكلمي! لماذا تبكين؟».

لم تجب أخته، واستمرت في البكاء والولولة، فسأل نسوة يرتدين ثياباً سوداً: «ما الذي حدث؟».

لم يسمع أي جواب، وسارع إلى الدخول إلى غرفته، فألفى رجلاً عجوزاً مستلقياً على سريره دونما حركة، فاقترب منه مدهوشاً، وحملق لحظات إلى وجهه الأصفر ثم تراجع إلى الوراء مرعوباً يبغي الفرار، ولكن الأيدي أمسكت به وحملته ووضعته في تابوت، فانتحب طويلاً كطفل يعانق أمه الميتة، ولكنه كفّ عن البكاء لحظة انزاح غطاء التابوت قليلاً عن قطعة صغيرة مضيئة من سماء عميقة الزرقة، فرنا إليها مبهوراً.

www.alkottob.com

وأحس بعد قليل بالتراب ينهمر فوقه غزيراً، ويسجنه في حفرة ضيقة، فأطلق صراخاً مديداً أجش منادياً امرأة مذبوحة العنق.

www.alkottob.com

حارة السعدي

www.alkottob.com

■ العدو

كان الأولاد في حارة السعدي فخورين بشجرة التين المنتصبة في آخر الحارة حيث رقعة الأرض المهملة، وقد اتفقوا على ألاّ تقطف ثمارها إلاّ بعد نضجها، ودأبوا على حراستها بيقظة. ولقد اجتاحهم الغضب حين علموا أن خصومهم الأولاد القاطنين في حارة مرجان قادمون بغية السطو على ثمار شجرة التين، وابتدأوا يستعدون لمجابهتهم، فجُمعت الحجارة ووضعت بمحاذاة الجدران في أمكنة عديدة وغطيت بجرائد قديمة، وملئت صرر من الورق بتراب ناعم، ثم وقف الأولاد مترقبين بتحفز.

وبرقت عيونهم لما أنبأهم ولد صغير لاهث أن أعداءهم مقبلون، ولكنهم ظلوا هادئين محتفظين برباطة جأشهم.

وبدا أولاد حارة مرجان يمشون بتؤدة غير هيابين، وكانوا يحملون في أيديهم عصياً، بعضها طويل رفيع، وبعضها الآخر غليظ قصير.

وبادر واحد من أولاد حارة السعدي إلى الوقوف في

www.alkottob.com

وجه أولاد حارة مرجان، وقال لهم بصوت مرتفع نزق: «شجرة التين شجرتنا. هيا اخرجوا من حارتنا».

وكان جواب أولاد حارة مرجان شتائم وعصا هوت على الولد الذي راغ بسرعة ووثب إلى الخلف، وعندئذٍ بدأت المعركة، وانهمرت الحجارة على أولاد حارة مرجان الذين بوغتوا قليلاً وتراجعوا محاولين الاحتماء شاتمين بغضب.

وقُذف نحوهم التراب الناعم المعبأ في الورق، فتصاعد غباراً كثيفاً، ولم تستطع العصي التي يحملها أولاد حارة مرجان القيام بدورها لأن الحجارة المسددة نحوهم كانت كثيرة إلى حد أجبرهم على التقهقر وجعلهم لا يجسرون على الاقتراب من أولاد حارة السعدي الذين كانوا يزدادون جرأة وإقداماً، وقد ابتدأوا يتقدمون نحو أعدائهم ويطاردونهم دون هوادة حتى أرغموهم على الفرار خارج الحارة.

وساد الصمت هنيهات بينما كانت الحجارة مبعثرة في جنبات الحارة والتراب يغطي أرضها. وامتلك الفرح أولاد حارة السعدي إذ أدركوا أنهم قد انتصروا، فشرعوا يقفزون ويصرخون ويتبادلون اللكمات الخفيفة، ثم هدأوا بعد حين وجلسوا تحت أغصان شجرة التين وتحدثوا بمرح عن أعدائهم الذين لاذوا بالفرار، ورمقوا بمحبة وحبور شجرة التين ذات الأغصان المثقلة بالثمار الصفر الناضجة، وتشاوروا فيما بينهم ثم اتفقوا على قطف الثمار في اليوم التالي، وقد صمتوا حيناً مغتبطين ثم تبادلوا الحديث بهدوء:

www.alkottob.com

«غداً سنأكل التين».

«لا. سنبيعه».

«سنقطفه ونضعه في سلة ونبيعه في السوق».

«سنشتري بثمنه عصافير».

«العصافير في الأقفاص ليست جميلة».

«سنشتري خروفاً».

«خروفاً أبيض».

«وسنركض وراءه».

وظل الأولاد حتى المساء يحرسون شجرة التين، ولم يفارقوها إلاّ عندما ابتدأت تطاردهم صيحات أمهاتهم تناديهم بسخط طالبة منهم الرجوع إلى البيوت.

ولما استسلم أولاد حارة السعدي للنوم، شاهد بعضهم شجرة التين تكبر حتى تلمس أغصانها وجه السماء الأزرق، وشاهد أيضاً خروفاً أبيض يثغو قائلاً لهم بوداعة: «اتبعوني إلى البساتين».

وكانت البساتين التي اقتادهم إليها الخروف خضراً لم يطأها من قبل أولاد حارة مرجان، وليس فيها أصوات أمهات وآباء، وأشجارها تغني بأصوات عذبة خافتة كلما لامس الهواء أغصانها، وكانت السماء كثدي أم طافحة بالحنو والحب.

وأفاق أولاد حارة السعدي من نومهم في الصباح، وهرعوا نحو شجرة التين، ففوجئوا بأن ثمارها كلها قد

www.alkottob.com

قطفت، فتجمدوا حزانى هنيهة، ثم تصاعد ضجيجهم واتهموا أولاد حارة مرجان بسرقة ثمار شجرة التين ليلاً، ولكنهم علموا فيما بعد ان الحارس الليلي هو الذي قطف ثمار شجرة التين، فتبادلوا النظرات الناقمة غير أنهم ظلوا صامتين، ولم يجسروا على التفوه بكلمة، فالحارس الليلي رجل ضخم الجثة، صارم الوجه، له شاربان كثان، ويتدلى من خصره مسدس كبير، وباستطاعته أن يسجن من يشاء.

وأقبل الليل ثقيل الخطى، متجهم العينين والجبهة، وعاد الأولاد إلى بيوتهم مبكرين، ولم تضطر أمهاتهم إلى مناداتهم بتذمر، واستسلموا للنوم مكتئبين، وقد شاهدوا في أثناء نومهم بساتين أرضها من دون عشب أخضر، ولم يسمعوا ثغاء خروف أبيض.

■ حسن ملكاً

فرح أولاد حارة السعدي لحظة أبصروا أبا مصطفى يغادر بيته حاملاً كرسيه الخشبي القصير القوائم ثم يتجه نحوهم، وعرفوا أنه قادم ليجلس كعادته كل صباح تحت أغصان شجرة التين. ووضع أبو مصطفى كرسيه على الأرض ثم جلس عليه متنهداً بارتياح، وتحلق الأولاد حوله بسرعة.

وكان أبو مصطفى رجلاً هرماً، وجهه باسم على الدوام. وبدأ الأولاد يتهامسون، فسألهم أبو مصطفى: «ما بكم يا أولاد؟».

فصاح الأولاد: «احك لنا حكاية».

www.alkottob.com

ـ: «ماذا أحكي لكم؟».

«حكاية الشاطر حسن».

فسعل أبو مصطفى، ومسح فمه بظهر يده، ثم أشعل سيجارة، وعبَّ من دخانها أنفاساً متلاحقة، ونفثه ببطء بينما كانت أعين الأولاد ترمقه بلهفة.

وابتدأ أبو مصطفى يتكلم قائلاً: «كان ما كان في قديم الزمان..».

وتوقف لحظة ثم قال متسائلاً: «هل أحكي أم أنام؟»

فضحك الأولاد، وتصايحوا بأصوات رفيعة: «احكِ احكِ».

فتابع أبو مصطفى كلامه بصوت هادىء: «كان في قديم الزمان رجل فقير اسمه حسن. وكان حظه سيئاً كحظ جميع الفقراء، ففشل في كل الأعمال التي قام بها، واضطر إلى ان يبيع أثاث بيته ويشتري بثمنه طعاماً لزوجته وأولاده السبعة. ولم يستطع حسن تحمّل الجوع والفقر، وصار يرى الدنيا سوداء، ولكنه ظل يحلم بأن يكون ملكاً، وصمم على الهرب والخلاص من البؤس. وفي ليلة من الليالي غادر البيت بينما كانت زوجته وأولاده السبعة نائمين، وتطلع إلى السماء وقال: «أنت يا الله خلقت زوجتي وأولادي وأنت سوف تطعمهم».

وابتعد حسن عن بلده، وظل يمشي أياماً وأياماً، وكان خلالها يأكل من عشب الأرض ويشرب من ماء الأنهار. ولكم فرح يوم لاحت لعينيه منازل مدينة من المدن، وجدّ

www.alkottob.com

في سيره مقترباً منها، وإذا حشد عظيم من الناس مجتمعين خارج المدينة، وما إن شاهدوا حسن حتى قبضوا عليه، فصاح حسن: «اتركوني. أنا رجل مسكين فقير. ماذا فعلت؟».

فأنبأه الناس أنه عندما يموت ملكهم يقفون في يوم معيّن خارج المدينة، وأول غريب يأتي من الشرق يختارونه ملكاً، أما الغريب القادم من الغرب فيقطعون رأسه.

فخاف حسن خوفاً شديداً، وشرع يصرخ: «ارحموني. أنا أب لي امرأة وسبعة أولاد سيجوعون إذا متّ. اتركوني. أريد الرجوع إلى بيتي».

فلم يأبه أحد لصراخه إنما أوثقوا يديه خلف ظهره، وأجبروه على الركوع على ركبتيه وإحناء رأسه، ثم قطعوا رأسه بضربة واحدة من السيف، فطار الرأس بعيداً، وأخذ يتدحرج بينما كان ينبعث من الفم صراخ ضعيف: «أريد الرجوع إلى بيتي».

ولم يرجع حسن إلى بيته ولم يصبح ملكاً».

وكفّ أبو مصطفى عن الكلام، واستسلم هنيهة للصمت، وراح يلمس بأصابعه شاربيه الأبيضين ثم قال بغتة للأولاد: «أقسموا يا أولاد ألا تتركوا بلدكم».

فاصطنع الأولاد الرصانة، وأقسموا ألا يتركوا بلدهم، وألا يحلموا بأن يكونوا ملوكاً غير أن بعضهم أقسم دون حماسة.

www.alkottob.com

■ موت أحدهم

كانت حارة السعدي مبنية من التراب والخشب عدا بيت واحد، فقد كان مشيداً من حجر أسود، ويقطنه محمود حاتم الذي يعيش وحيداً اثر موت أمه. وكانت له أخت متزوجة تزوره في أوقات متباعدة.

وكان محمود حاتم يؤوب إلى بيته كل مساء بعد انتهائه من عمله في دكانه التي يبيع فيها الأقمشة. وكان محباً للصمت، يمشي بخطى متئدة، ذا وجه جامد. وكانت نساء الحارة يتساءلن بحيرة: «لماذا لا يتزوج؟».

ويزعمن أن ثمة حباً فاشلاً يحفزه إلى الامتناع عن الزواج.

وكان الرجال يقولون: «محمود حاتم شاب وغني، فلماذا لا يتزوج؟».

ويصمتون هنيهات باحثين عن سبب، ثم يتبادلون الابتسامات والنظرات الخبيثة.

وتزينت بعض فتيات الحارة، وحاولن أن يلفتن أنظاره إليهن، فباءت محاولاتهن بالفشل.

وتناسى ثلاثة رجال كبرياءهم، وحاولوا مبادلته الحديث، فارتدّوا خائبين.

وفي ظهر يوم من الأيام شوهد شاب غريب عن الحارة يقرع بإلحاح باب بيت محمود حاتم، فتجمهر أهل الحارة حول الشاب وقد استولى عليهم فضول جارف، وأخبرهم الشاب أنه يعمل في دكان محمود حاتم، وقد أقلقه عدم

www.alkottob.com

حضور معلمه إلى الدكان، ثم عاود قرع الباب دونما مجيب.

وعندئذٍ تبادل أهل الحارة الرأي ثم كسروا باب البيت. ودلف الشاب إلى الداخل، وتبعه أهل الحارة، وقد بوغتوا برؤية محمود حاتم ملقى على سرير، مفتوح العينين دون حركة، فأجهش الشاب بالبكاء كامرأة.

واستدعي الطبيب على عجل. ولم يحتج الطبيب إلى وقت طويل كي يقرر أن المنية وافت محمود حاتم، وحضرت أخته المتزوجة وناحت طويلاً، ثم سارت الجنازة تتقدمها كمية كبيرة من الورد والآس.

ووضعت جثة محمود حاتم في حفرة مظلمة، وسُد فمها ببلاطة بيضاء، وأهيل التراب والحجارة فوقها بينما كانت الكثيرات من فتيات حارة السعدي ما زلن يحلمن برجل ما ويترقبن بلهفة يوم ينجبن الأطفال ويسمعن صيحاتهم النزقة.

ولم يظلّ بيت محمود حاتم خاوياً لفترة طويلة، فقد سكنته عائلة مؤلفة من رجل وامرأة لهما أولاد عديدون، ولكنها ما لبثت ان هجرت البيت زاعمة أن ثمة شبحاً شاباً يجوب الغرف في الليالي المقمرة ويطلق صراخاً أجش مفعماً بالكآبة وتواقاً إلى الحدائق الخضر والنجوم والنساء.

www.alkottob.com

الشنفرى

www.alkottob.com

www.alkottob.com

[redacted]

باع الشنفرى سيفه قبل سنين دون أن يلطخ سيفه بدماء مئة رجل، وعاش بعدئذٍ في مدينة تفترسها شمس من نار.

كان رجلاً يحب الورد والكلمات والنجوم غير أن الورد ليس خبزاً، والنجوم ليست سجائر.

ونادى الشنفرى الكلمات بضراعة لحظة كان يرمق البناية التي يسكن فيها والخاضعة لظلمة الليل، ولبّت الكلمات نداءه، واقبلت سحابة سوداء من الصقور الجائعة، حطمت زجاج النوافذ وأبواب البيوت، وانقضت موتاً له آلاف الأجنحة على سرر ينام عليها رجال ونساء، فابتسم الشنفرى مبتهجاً، ودلف إلى داخل البناية بخطى وئيدة بينما كانت الصقور ترحل، وينأى عن سمعه صراخها الحاد. وحين دسّ المفتاح النحاسي الصغير في ثقب القفل، فوجىء بقطة تتمسح بساقيه وهي تموء: «نياو نياو».

ففرح الشنفرى، وسارع يفتح الباب، وقال للقطة بلهجة مرحة: «ادخلي ادخلي».

www.alkottob.com

فأطاعت القطة، وأغلق الباب خلفها بحركة سريعة، وأضاء النور الكهربائي.

وكانت القطة هزيلة بيضاء، وقد ماءت ثانية: «نياو نياو».

فرمقها الشنفرى بحنو.

أنت جائعة مسكينة. لا تزعلي ولا تخجلي، ففي يوم من الأيام كدت آكل جوربي العتيق. خذي هذه قطعة خبز طرية. هيا كلي. ألا تريدين؟

نياو نياو

ما بك ما دمت لست جائعة؟

نياو نياو.

ايه؟ عجيب؟ أنت متزوجة؟ زوجك قط شرس يبدد ما يكسب من النقود في الخمارات وعلى أناث القطط.

وفضولية أيضاً؟ أنا لست متزوجاً، والمرأة التي أحبها سآكل فمها وابتلع لحم شفتيها الدامي الطري، ثم أضرب رأسها بقطعة خشب صلدة وأكسره وألطخ وجهي بدمها الساخن، ثم أدفنها تحت سريري وأنام مرتاح البال.

نياو نياو.

ألا تملكين غير النياو النياو؟ أف. أتبحثين عن طبيب؟ آه طفلك مريض وبحاجة إلى طبيب ودواء وأنت لا تملكين أجرة الطبيب وثمن الدواء.

نياو نياو.

www.alkottob.com

عرفت ما بك. أنت لا بيت لك ولا تملكين إيجار غرفة. اسكني معي. أنا أشتغل وأنت عليك طهو الطعام وغسل الثياب وتنظيف البيت.

نياو نياو.

الشنفرى: نياو نياو.

القطة: نياو نياو.

الشنفرى: نياو نياو.

القطة: نياو نياو.

وألفى الشنفرى نفسه يدبّ على أربع ويجابه القطة. وكان وجهه قريباً من وجهها، وصاح بصوت خشن غاضب: «نياو نياو».

فنفخت القطة مغتاظة، وخدشت وجهه بمخالبها بحركة سريعة، وتراجعت هاربة، فنهض واقفاً، وفتح الباب، وقال للقطة بنزق: «هيا اخرجي يا خائنة».

فانسلّت القطةَ من الباب بحذر وسرعة، وصفق الشنفرى الباب خلفها بعنف ثم سار نحو مرآة مثبتة فوق المغسلة، وتطلع إلى وجهه، فإذا الدم ينزف من جرحين صغيرين، فلم يحاول مسحه إنما قطب جبينه ثم ما لبث أن ابتسم، وهمس: «نياو نياو نياو.».

وتحول صوته شيئاً فشيئاً صراخاً فظاً، فالسيف بيع قبل سنين دون أن يتلطخ نصله بدماء مئة رجل.

www.alkottob.com

في الصحراء

www.alkottob.com
www.alkottob.com

يئنّ الرجل الذي لا يملك سوى أسنانه المنخورة، ويرمق بحنق مباني المدينة الشبيهة بغابة أشجارها مآذن من حجر شاحب. ولما هبّت الريح، بادر إلى اعتقالها، وعاد إلى غرفته، وسجن الريح في درج طاولته، فتحلق حوله بغتة عدد من الرجال الذين يرتدون ثياباً بيضاً.

كيف أتيتم

في طائرة خاصة

وأجنحتكم

في المستودع

ماذا تريدون

أعد إلينا الريح

طلبكم مرفوض

أشفق علي الأشجار فهي بحاجة إلى الريح كي تخلصها من أوراقها الميتة فأغصانها تتعذب أشدّ العذاب

www.alkottob.com

www.alkottob.com

ليست وحدها المعذبة فأنا أيضاً أتعذب كل يوم فهل أشفقت عليَّ الأشجار

انظر من نافذتك إلى الشارع وتأمل الأشجار المسكينة فهي تستحق الرثاء

غرفتي دون نوافذ

التراب عطشان وإذا لم تجلب الريح الغيوم فلن تهطل الأمطار

التراب ليس أختي أو أمي

والناس الذين تحبهم سيجوعون إذا لم ينبت القمح والقمح لا ينبت إلاّ إذا هطلت الأمطار

فليجوعوا فأنا نفسي جائع الآن

تعاون معنا وستشبع

كلام جدير بالاحترام

اطلب ما تشاء

أريد أريد سريراً كبيراً يتسع لمئة شخص

ماذا ستفعل به

لا تتدخلوا فيما لا يعنيكم فأنا أريد سريراً يكون كسهل شاسع يركض فيه الحصان ساعات ولا يبلغ نهايته

السرر الموجودة في مستودعاتنا تصلح لشخص أو لشخصين فقط ولا وجود لسرير كالسرير الذي تطلبه

إذن ستظل الريح سجينتي

www.alkottob.com

كن عاقلاً فإذا حصلت على السرير الذي تريده فأين ستضعه هل تضعه هنا في غرفتك الشبيهة بعلبة الكبريت

أنتم تحتقرون غرفتي

غرفتك تخلو من المقاعد

وقوف شريف خير من جلوس ذليل

غرفتك محرومة نور الشمس

ولكنها ليست محرومة شمس العقل

لا هواء فيها

العلم الحديث أثبت ان الهواء ضار

انها غرفة لا تصلح لانسان

أنا أحتج أيها السادة ولا أسمح لكم بتوجيه الإهانات إلى غرفتي فإن الذبابة تدمي مقلة الأسد

لا تغضب

كفوا عن الكلام واخرجوا فوراً من غرفتي وإلاّ ناديت خدمي وأمرتهم بطردكم شر طردة

سنعتذر

اعتذاركم مرفوض بشدة فأنتم تقتلون القتيل وتمشون في جنازته

فانسحب الرجال من الغرفة منكسي الرؤوس، وظل الرجل المنخور الأسنان واقفاً، مشدود القامة، مرفوع الرأس، وفكر لحظات مقطب الجبين ثم صاح بصوت وقور متهدج:

www.alkottob.com

«يا أبناء الكرة الأرضية.. لا تزال الامبريالية تتآمر وتحرض أسناني المنخورة على تعذيبي».

ومن المسجد القريب، تعالى صوت المؤذن داعياً إلى الصلاة، فابتسم الرجل المنخور الأسنان ابتسامة متشفية، وقال بلهجة هازئة: «اصرخ يا مؤذن اصرخ، فلن ألبي نداءك، ولن أصلي».

فقرعت باب الغرفة قبضة ما مترددة.

ادخل

فدلف إلى الغرفة رجل هرم محني الظهر يتوكأ على عصاه، ووجهه المكتئب وجه من شاهد هلاك ملايين الأطفال.

من أنت

ألم تعرفني

عرفتك الآن

ألا تشعر بالخوف

لا

لا تكذب فلا بد أنك شعرت بقليل من الخوف

هل جئت لتختبر شجاعتي

لماذا ترفض ان تصلي

أنا حر أفعل ما أشاء

الصلاة ضرورية كي تنال الحياة السعيدة

ومتى سأنال الحياة السعيدة

www.alkottob.com

بعد موتك
سأرقص وأزغرد
إذا صليت فستحيا بعد الموت أروع حياة فلا همّ ولا غمّ
هل يتاح لي السكن في بيت له نوافذ
سوف تسكن في قصر تحيط به الأشجار والأزهار
ولن أطالب بدفع الايجار في آخر كل شهر
طبعاً طبعاً
وهل أحصل على امرأة
ستكون لك أجمل امرأة
امرأة تضحك وتتكلم وتبتسم وتبكي
طبعاً طبعاً
وهل أجد طعاماً كلما جعت
طبعاً طبعاً وسيحضره إليك خدم يرتدون أفخر الثياب
سأذهب منذ اليوم إلى القبر
ولكن يجب ان تصلي أولاً
سأصلي عشر مرات في اليوم
سوف تنال قصرين وامرأتين
سأصلي عشرين مرة في اليوم
سوف تنال أربعة قصور وأربع نساء
ولكن

www.alkottob.com

تكلم وقل ما تشاء

أنا أنا

احك ولا تستح

أريد شراء دواء لأسناني المنخورة ولا أملك ثمنه

ليتني أستطيع مساعدتك

ولماذا لا تستطيع

لأني فقير مثلك

الكتب التي لا تكذب تقول إنك أغنى الأغنياء

كنت فيما مضى من السنين أغني الأغنياء ولكن اللصوص كثيرون لم يتركوا لي ما يكفي لشراء رغيف واحد

إذن لن أصلي

ستحرق في النار إذا لم تصلِّ

لن أصلي

بل ستصلي

اخرج من غرفتي

لا تزعل بسرعة

هذه الغرفة غرفتي وأنا الذي أدفع إيجارها ويجب ان تغادرها حالاً

أرجوك قل إنك ستصلي أرجوك احترم رغبة عجوز موشك على الموت

www.alkottob.com

سأستدعي رجال الشرطة إذا لم تغادر غرفتي فوراً

ذعر الرجل الهرم، وسارع إلى الخروج من الغرفة، وبقي الرجل المنخور الأسنان وحده، فألصق وجهه بالحائط الخشن، وها هو ذا يمشي وحيداً في صحراء لا ماء فيها ولا ظل، ويوشك أن يسقط، ولكنه لا يستسلم ويستمر في السير إلى الأمام وهو يترنح ويئن.

www.alkottob.com

شمس للصغار

www.alkottob.com

قلت لأخي المستلقي على السرير: «أنت كالضفدعة».

قال لي: «عندما تكبر، ستصير سراقاً، وأكون أنا شرطياً فأقبض عليك وأسجنك».

قلت له: «أنا لا أخاف من رجال الشرطة».

قال: «هكذا يتكلم السراق».

فزعلت، وقلت له: «سأضربك على وجهك».

فصاح بصوت عالٍ حاد، فأتت أمي من المطبخ، فقال لها أخي وهو يضع يداً على خده، ويشير إليَّ باليد الأخرى قائلاً: «ضربني على وجهي».

فصرخت قائلاً: «كذاب».

فقالت أمي بغيظ: «اخرسا».

ثم وضعت يدها على كتفي، وقالت: «تعال واشتر لبناً».

قلت: «أرسلي أخي».

www.alkottob.com

قالت: «ألا ترى أنه مريض؟».

قلت: «وأنا مريض أيضاً».

قالت: «أنت كالقرد».

قلت: «رجلي توجعني».

فلم تصدق ما قلت، واضطررت إلى مغادرة البيت وأنا أشد أصابع يدي اليمنى على النقود، أما اليد اليسرى فقد أمسكت الصحن بحرص، فقد أوصتني أمي ألا أضيع النقود، وألا أكسر الصحن، وألا أدلق اللبن.

وسرت متباطئاً حتى بلغت دكان البقال، فوجدته جالساً على كرسي أمام باب دكانه، وكان سميناً له بطن كالحبلى.

قلت له: «عندك لبن؟».

فتثاءب، وطرد بيده ذبابة همّت بالدخول إلى فمه، وقال: «لبن ماعز أم لبن بقر؟».

ففوجئت بسؤاله، وقلت: «لا أعرف».

قال: «ارجع واسأل أمك».

فعدت إلى البيت، وأخبرت أمي بسؤال البقال، فقالت بغضب: «هات لبن البقر».

فرجعت إلى دكان البقال، وقلت له: «تريد أمي لبن بقر».

قال: «لا يوجد سوى لبن ماعز».

www.alkottob.com

فقصدت البيت ثانية، وقلت لأمي: «لا يوجد إلاّ لبن ماعز».

قالت وقد اشتد غضبها: «اذهب وهات لبن ماعز».

فرجعت إلى البقال، وقلت له: «أعطني لبن ماعز».

فأخذ مني النقود، وأحصاها بدقة وتأن ثم رماها في طاسة حديدية موضوعة على رف خشبي، ووضع الصحن في كفة الميزان ثم وضع اللبن في الصحن ثم أعطاني الصحن، وأوصاني ألاّ أدلق اللبن، فسرت بخطى بطيئة حذرة وعيناي لا تفارقان اللبن المترجرج في الصحن، فاعترض طريقي فجأة ولد أبيض الوجه، ممشط الشعر، جميل الثياب، وقال لي باحتقار: «أنت خادم».

فغضبت وقلت له: «أمك غسالة وشحاذة».

فقال لي: «أبي عنده سيارة. أبوك عنده سيارة؟».

لم أفه بكلمة، فدنا مني، ومدّ يداً مضمومة الأصابع، وسألني: «احزر ماذا يوجد في يدي؟».

فزال غضبي، وقلت: «لا أعرف».

قال: «هيا احزر».

قلت: «فرنك».

قال: «لا.. لم تحزر».

وفتح يده، فإذا على راحته المبسوطة ذبابة ميتة، وقال متفاخراً: «أنا اصطدتها».

فقرفت بينما ضحك الولد بهزء، ورمى الذبابة الميتة في

www.alkottob.com

الصحن، فلحقت به، وضربته بالصحن، فسال اللبن على ثيابه، وسقط الصحن على الأرض وتحطم.

وقعد الولد على الأرض، وأخذ يصرخ ويبكي كالبنت، وبدا منظره مضحكاً غير أني خفت وركضت هارباً، ولم أتوقف إلاّ حين تعبت، واستندت إلى حائط من تراب ألهث حائراً، فأمي ستضربني إذا عدت إلى البيت من دون صحن اللبن، وسينظر إليَّ أخي شامتاً.

كان الزقاق خالياً، فبكيت ثم مسحت دموعي بطرف كمي، وقعدت على الأرض متعباً لا أعرف ماذا سأفعل.

وتنبهت بغتة لخاتم ملقى قريباً مني، فالتقطته، وكان يبدو أنه من فضة غير أنه لم يكن نظيفاً، فأخذت أمسحه بثيابي، فإذا بقط أسود يقبل نحوي وهو يموء، فنهرته قائلاً: «رح».

فماء ثانية، وقال لي: «ماذا تريد؟».

ارتعبت غير أني تشجعت، وبلعت ريقي بصعوبة ثم قلت له: «من أنت؟».

قال: «أنا المارد خادم الخاتم».

قلت له: «أنت قط».

قال: «أنا أحضر متنكراً كي لا يخاف الناس مني. هيا اطلب ما تشاء فألبي طلبك».

فكرت لحظة ثم قلت له: «أريد صحن لبن بدلاً من الصحن الذي انكسر».

قال: «طلبك سيتحقق. ها هو الصحن».

www.alkottob.com

فتناولت الصحن فرحاً غير أني استأت قليلاً إذ عثرت على ذبابة ميتة طافية على وجه اللبن، ولكني انطلقت نحو البيت أسير بخطى واثقة مرحة.

www.alkottob.com

البدوي

www.alkottob.com

www.alkottob.com

[redacted]

تبع يوسف الجنازة إذ لم يكن لديه ما يفعله. رمى عقب سيجارته واندمج في حشد من الرجال السائرين خلف تابوت خشبي محمول على الأكتاف، ومشى بتمهل عاقداً يديه بوقار على صدره، منكساً رأسه قليلاً بينما يتناهى إلى مسمعه صوت المؤذن يتعالى عذباً مثقلاً بالوحشة. وكان المؤذن رجلاً بديناً، قصير القامة، ذا لحية سوداء، يسير في المقدمة أمام التابوت بين صفين من الرجال الحاملين أغصان الآس الأخضر.

وكان ثمة عدد من النسوة، متلفعات بملاءات سود، يمشين على مبعدة يسيرة.

لم تكن المقبرة نائية، ولقد وقف يوسف بين أضرحتها البيض، منفرج القدمين، تحت شمس صفراء وسماء زرقاء، تفعم أنفه رائحة التراب والعرق والآس.

وُضع التابوت على الأرض. تنهد بارتياح الرجال الذين كانوا يحملون التابوت. اقترب حفار القبور من التابوت. حفار القبور رجل مغبر الثياب والوجه. انحنى. همّ برفع

www.alkottob.com

التابوت، وعندئذٍ انطلقت صرخة حادة من حلق امرأة: «أنا أمك يا ليلى».

فتخيّل يوسف على الفور الفتاة الميتة ترفع غطاء التابوت وتقول: «مرحباً ماما».

أُخرج جسد الميتة من التابوت ملفوفاً بقماش لامع بنفسجي اللون، وحُمل برفق وحذر، فتعالت صيحات النسوة تندب فتاة وافتها المنية وهي لا تزال في مقتبل العمر وتوارت قبل ان تعرف مسرات الدنيا.

كانت الحفرة مهيأة من قبل، يرتفع على جوانبها التراب والحجارة الصغيرة، فأنزل الجسد الميت إلى جوفها، وغاب في العتمة.

وكان ثمة شاب وسيم الوجه، مصقول الشعر، يرتدي بنطالاً رمادي اللون، وقميصاً أبيض.

وابتسم يوسف إذ لاحظ أن ياقة القميص غير نظيفة.

وكان الشاب مقعياً عند حافة القبر، يتطلع بذهول إلى داخله، وقد انتحب بغتة بصوت عال، مغطياً وجهه براحتيه، وسمع يوسف الرجال الواقفين حوله يتهامسون: «هذا خطيبها».

وأغمض يوسف عينيه نصف اغماضة. لن ترتدي الميتة ثياباً بيضاً. لن تزغرد النساء. لن يعانقها شاب وسيم الوجه ويقول لها: «يا حبيبتي».

وبدرت من الشاب على حين غرة حركة كأنه يوشك ان يقذف بجسده إلى جوف القبر، فسارع الرجال

www.alkottob.com

وأمسكوا به واقتادوه بعيداً وهم يواسونه متمتمين بكلمات العزاء والتشجيع.

سُدّ فم القبر ببلاطة باهتة البياض، ثم أهيل فوقها التراب بينما كان نواح النسوة يشتد ويقوى ممتزجاً بحركات الرجال الذين يمسحون أعينهم بمناديل بيض.

امتلكت المقبرة موجة من الضجيج الحزين. ولبث يوسف متجمداً في مكانه، وكان موقناً أن الموت أبصره وحملق إليه بشراهة وغيظ.

وأقفرت المقبرة شيئاً فشيئاً، واندحرت الأصوات المعولة. وظل يوسف واقفاً وحده يتأمل ببلاهة كومة التراب المرتفعة قليلاً عن الأرض.

ودنا منه حفار القبور وصافحه معزياً ضاغطاً على يديه بحرارة، ثم تنهد وقال له: «الموت صعب».

ولم يبتسم يوسف لأن حفار القبور عامله كواحد من أقارب الميتة. وابتعد حفار القبور عن يوسف، ومشى محني الظهر، وفجأة استدار ورمق يوسف بنظرة يسحقها انكسار وذل، فأحس يوسف أنه مرتبط بالميتة ارتباطاً حقيقياً وغامضاً، وسارع إلى مغادرة المقبرة، وسار متباطئاً في شارع تنتصب الأشجار على جانبيه. وكانت الشمس فوقه حارة ومضيئة. وانحدر نحو قلب المدينة حيث كان الصخب بانتظاره، وهناك مشى دونما هدف، مقوس الظهر، رتيب الخطى، وابتدأ يمارس هوايته بأن يختار أسماء لأناس لا يعرفهم. هذا كركدن، وهذه خنفساء، وذاك طبل.

www.alkottob.com

ووقف حيناً من الوقت متكئاً بمرفقيه على سور النهر، وراقب المياه التي تترقرق منسابة بخفة تحت ضياء الشمس الساطعة، وأطبق عينيه، وأنصت للخرير الخافت ثم عاود المسير بتكاسل إذ لم يكن لديه ما يفعله. وكان يشعر في تلك اللحظة أن لا شيء حقيقياً على سطح الأرض، وكان لا يريد أن يحيا ولا يريد أيضاً ان يموت، ولا يبغي فعل أي شيء سوى أن يستلقي على ظهره تحت شمس دافئة متثائباً بين حين وآخر حتى يهرم ويموت.

ودبّ التعب في قدميه وظهره، فقصد مسكنه الذي كان قبواً يتألف من غرفة واحدة ومطبخ. وكان القبو فيما مضى مخزناً للأحطاب تابعاً للطابق الأول حيث يقطن صاحب البناية. دسّ المفتاح النحاسي في ثقب القفل، وأداره، وفتح الباب ودلف إلى الداخل، وأوصد الباب خلفه، وحينئذٍ استولى عليه شعور بأنه ناء عن العالم، وغريب عن النهار الصاخب الأبيض الذي يعدو عبر الشوارع. وهبط درجات السلم الحجرية إلى الغرفة. كان للغرفة ثلاث نوافذ مطلة على الحديقة. وكان ثمة طاولة خشبية في وسط الغرفة، قبع على سطحها تمثال صغير من خشب أصفر عتيق لبدوي يمتطي صهوة جواد شرس، وقد رمقه يوسف بنظرة مكتئبة بينما الرغبة في سماع الموسيقى تتسكع في دمه عذبة ضارية لها الكثير من الأقنعة.

وتمدد على سريره الحديدي الضيق، وحملقت عيناه إلى السقف ذي البياض الباهت، وكان شبيهاً بالبلاطة التي سدت فم القبر. الميتة اسمها ليلى، صبية في مقتبل العمر،

www.alkottob.com

وحيدة الآن في حفرة مظلمة بينما السماء زرقاء والشمس متوهجة والأشجار خضر.

وانكفأ دافناً وجهه في الوسادة فريسة لخيبة مريرة لا سبب لها. آخ. آخ. سيموت. الرغبة في الموت والخوف من الموت صوتان ينموان في لحمه ويصعدان عالياً. سيذبح شرايين معصمه وسيبكي وهو يلصق وجهه بالبلاط البارد الصلد مخاطباً مخلوقاً ما يجهل وجهه: «وداعاً».

وخيّل إليه خلال لحظات أن قبوه ليس إلاّ قبراً.

وسمع بغتة حركة في الحديقة، فسطع نهار طفل في أعماقه، وأسرع إلى النهوض، ودنا من النافذة، فإذا سميرة بنت مالك البناية تقطف زهر الياسمين من الشجرة المزروعة في حوض ترابي قريب من النافذة، فتأملها بعينين نهمتين. كان شعرها أسود متهدلاً على كتفيها، وعيناها مفغمتين بالتحدي، وقد وقفت على رؤوس أصابع قدميها محاولة قطف الياسمين من غصن عال، فأبصر يوسف لحم فخذيها الأبيض.

أحضر كرسياً، ووقف عليه، وقرَّب وجهه من النافذة ذات القضبان الصدئة المغطاة بنسيج حديدي، وقال بصوت خافت: «سميرة».

فتابعت سميرة قطفها للياسمين بينما وجهها قناع جميل، فعاد لمناداتها بإلحاح وتوسل: «سميرة سميرة».

فلم تجب، وأيقن أنها تتجاهله عن قصد، فدهمه شعور بالمهانة والذل. وكانت سميرة خارج القبو، واقفة على

www.alkottob.com

سطح الأرض بثبات وثقة، مغمورة بالشمس، تتألق فتية، وعمرها لا يتجاوز السادسة عشرة.

غاص يوسف في طين خفي قديم، وأشعل سيجارة، وطفق يذرع الغرفة بخطى سريعة قصيرة بينما الحنق في شرايينه يلقي بأنشودة خشنة. ليلى فتاة ميتة، بلا شمس، مستلقية على ظهرها، ملفوفة بالقماش اللامع البنفسجي اللون.

وقفت سميرة ثانية على رؤوس أصابع قدميها، فأبصر يوسف فخذيها من جديد. سيكون القماش بارداً.

واجتاح يوسف شوق عارم إلى رؤية وجه الميتة. صرخت أمها: ليلى. لا لا. لن يبصر وجهها حتى يقبل الليل. الليل صديقه. الليل كفن أسود. بدت على وجه سميرة كبرياء طاغية، فاشتد غضبه.

ستنبش أظفاره التراب، وتبعده عن البلاطة بحركة محمومة. سيرفع البلاطة، وينزلق إلى أسفل، وسيكون القمر فوق القبر، وسيتسرب نوره أبيض همجياً إلى جوف القبر، وستمتد يدان مذعورتان وحشيتان، وتبعدان القماش، فيبزغ عري الجسد الهامد. اللحم بارد وحار في آن واحد، مكتنز ناعم لين. لن يجسر على التطلع إلى وجهها. سيخونه القمر ويهرب ليتركه وحيداً. ستبعد الميتة القماش المتكوم فوق وجهها وتطلق صرخة فزع حادة.

عضّ يوسف بأسنانه على شفته السفلى بينما الرعب يدب جامحاً في أوصاله. وانحنت سميرة مقربة وجهها من النافذة، وقالت مبتسمة: «يوسف.. ماذا تريد؟».

www.alkottob.com

-: «أين الرد على رسالتي؟».

-: «رميته من شباك المطبخ».

وابتعدت عن النافذة، وسمعها تصعد السلم الحجري القليل الدرجات، وتدخل إلى الطابق الأول. وهرع إلى المطبخ حيث توجد نافذة واحدة صغيرة مطلة على حديقة البناية الخلفية، وكان ثمة ثقب في النسيج الحديدي الذي يغطي النافذة، أحدثه يوسف بنصل سكين، وقد اعتادت سميرة ان ترمي رسائلها منه.

عثر على ورقة مطوية، فالتقطها، وعاد إلى الغرفة وجلس على الكرسي بعد أن قرّبه من الطاولة، وابتدأ يقرأ بحبور: حبيبي يوسف.

وسمع طرقاً فوقه على سقف الغرفة، فابتسم، فسميرة كعادتها تضرب بقدمها أرض غرفة الضيوف، فرجع إلى المطبخ متأكداً أنها ستحضر لتكلمه، وقد أتت بسرعة، وجثت على ركبتيها، وألصقت وجهها بالنافذة، وكان المطبخ مظلماً. همست: «يوسف».

فلم يفه بكلمة، فنادته ثانية بصوت خفيض: «يوسف يوسف».

فسعل بمرح، وقالت متسائلة بلهفة وخجل: «قرأت الرسالة؟».

-: «قرأتها».

-: «قرأتها؟! أين الجواب؟».

-: «لم أكتبه».

www.alkottob.com

.: «لماذا؟».

.: «لأني سأتزوجك الآن».

ضحكت.

.: «افتح لك الباب؟».

.: «لماذا؟».

.: «الزوجان يعيشان في بيت واحد».

.: «ماذا ستفعل إذا كنت معك؟».

.: «سأقبلك».

.: «قبلة واحدة؟».

.: «كم تريدين؟».

فارتفعت ضحكاتها كغناء فرح صادر عن عصفور صغير. وقال يوسف بلهجة جدية مباغتة: «أهلك أغنياء».

.: «هل هذا عيب؟».

.: «لن يزوجوك إلاّ من غني ولن يوافقوا على زواجك من فقير».

.: «لن أفعل إلاّ ما أريد».

.: «وماذا تريدين؟».

.: «سأتزوج من أحب».

.: «ومن تحبين؟».

.: «أنت تعرف».

.: «تكلمي.. من تحبين؟».

www.alkottob.com

ـ: «اسمه يوسف».

ـ: «يوسف فقير».

ـ: «أحب الفقر».

ـ: «الفقر بشع. ستجوعين».

ـ: «أحب الجوع».

ـ: «أخلاقي سيئة. قد أضربك».

ـ: «اضربني».

ـ: «أتهربين معي؟».

ـ: «إلى أين؟».

وتعالى في تلك اللحظة صوت أم سميرة منادياً: «سميرة سميرة. أين أنت؟».

فهبّت سميرة واقفة، وأسرعت نحو شجرة الليمون النامية حديثاً، وتصنّعت أنها تداعب أوراقها الخضر الصغيرة. وسمع يوسف الأم تقول: «ماذا تفعلين؟».

ـ: «سأسقي الحوض».

ـ: «اتركي الآن سقاية الحوض، اذهبي ورتبي غرفة الضيوف. هناك رجال سيزورون أباك هذا المساء».

ورجع يوسف إلى غرفته، وأشعل سيجارة، وابتلع القليل من دخانها، فانتابه دوار خفيف، وتنبه عندئذٍ إلى أنه جائع، فقصد المطبخ، وأكل رغيفاً وقطعة من الجبن، وشرب كوبين من الماء ثم أشعل سيجارة أخرى، ووضعها بين شفتيه ضاغطاً عليها بحنو، وعبّ منها أنفاساً متلاحقة ثم

www.alkottob.com

نفث الدخان ببطء منتشياً كأن نجوماً تتألق في شرايينه تحت جلده.

واستلقى على السرير وهو مستسلم لفرح لا سبب له، ولكنه ما لبث أن تبدَّد فرحه حين تذكر أنه سيهرع في صباح الغد إلى المعمل حيث الآلات.

وهدرت في مسمعه أصوات الآلات.. آلات حديدية ناعمة الملمس كلحم امرأة. الميتة وحيدة في حفرتها هامدة. لن تأكل خبزاً أو جبناً. لن تعود إلى بيت ما. لن يزجرها أب أو أم. لن تحلم. لن تسكر وتترنح. لن يولد الحزن في عينيها. لن تقول: آخ. لن يرتعش فوق فمها حنين إلى ما ليس له اسم ومفقود عبر الأرض الكبيرة. سأفاجأ ببرودة اللحم حين ألمسه، وستكون ظلمة القبر كحجر أسود صلد. لن يجسر على رؤية وجهها. وجه صاحب المعمل مرح قاس خبيث. لا أحبه لا أحبه. وجه مصنوع من حديد وغبار وزيت. أعطنا خبزاً ولحم نساء أيها الرب الفولاذي. صاحب المعمل غني. لم يكن في البداية غنياً إنما كان يملك دكاناً صغيرة ويرتدي ثياباً زرقاً يلطخها الزيت والشحم، وكان عمّاله قلائل، يشاركهم في العمل والأكل والحديث والضحك، ويؤمن أن الناس طيبون. وشيئاً فشيئاً تحولت الدكان ذات الآلة الواحدة معملاً مكتظاً بالآلات، فاضمحلت ضحكة صاحب المعمل وابتدأ يؤمن أن الناس أردياء ومحبون للكسل، وتبدلت ثيابه ولم يعد يمشي على قدميه. والد سميرة غني ولكنه لا يملك سيارة إنما يملك أراضي ارتفع ثمنها فجأة، فاغتنى وانتقل من بيت في زقاق

www.alkottob.com

إلى بناية في شارع عريض غير أنه ما زال رجلاً ولد في بيوت الأزقة، ضخم الجثة، كئيب الوجه، صوته خشن وفظ. إنه يحب سميرة، ولكنه سيذبحها لو علم أن لها علاقة ما برجل غريب. سميرة تخاف منه. لا تحب أمها. أمها تعاملها كأنها خادم. سميرة الآن بنت أغنياء، ولن يزوجها والدها إلاّ من غني، وحين تكبر ستتبدل وتطلب رجلاً ذا ثروة.

وافترس يوسف حقد ضار، فكل سنة تمرّ ستبعده عن سميرة، ولكنه ارتعش شوقاً إليها، واختلط الحقد والشوق معاً، وتخيّل سميرة نجمة بيضاء متلألئة في الأعالي. ورنّ جرس الباب بغتة، فنهض يوسف مرتبكاً، وصعد درج القبو، وفتح الباب بسرعة، فلم يجد أحداً، فأغلق الباب، ووقف خلفه في العتمة ويده على المقبض. وسمع بعد قليل وقع أقدام حافية، ففتح الباب، فإذا بسميرة تتراجع وقد فوجئت، فناداها يوسف: «سميرة».

فتطلعت إليه متسائلة، فأشار إليها أن تقترب، فهزت رأسها متمنعة. سألها بصوت خفيض: «أين أمك؟».

ـ: «نائمة».

وكانت شمس الظهيرة ساطعة بالغة أوج قوتها. وطلب يوسف ثانية إلى سميرة أن تقترب منه، فسألته بمكر: «ماذا تريد؟».

ـ: «أريد أن أقول لك كلمة».

ـ: «قلها».

www.alkottob.com

ـ: «اقتربي».

ـ: «لا».

ـ: «ألا تحبينني؟».

ـ: «لا أحبك».

فأشار بسبابته إلى فمه ثم أبعدها وقال: «واحدة».

فحرّكت كتفيها بإشارة رفض، فقال: «سأزعل».

وكان تواقاً إلى ضمها بين ذراعيه حتى يشعر أن ثمة مخلوقاً حياً لصقه يتنفس ويلهث.

قالت سميرة بتشف ممتزج بمرح: «ازعل وافعل ما تشاء».

فاصطنع وجهه سيماء التجهم، ورنا إليها بنظرات حزينة بينما كان شديد الحنين إلى أن يحسّ برحلة الدم في الشرايين خلف بشرتها، وقال: «واحدة فقط».

ـ: «أواحدة فقط؟».

ـ: «واحدة فقط».

ـ: «إذن أنت لا تحبني».

ـ: «سآكلك».

فتراجعت إلى الخلف وهي تقول: «كشفت نياتك السيئة».

واختفت وراء باب غرفة الضيوف. ويرجع يوسف إلى داخل قبوه، ويتمدد مجدداً على وجه السرير.

ومن مكان قريب انسابت إليه أغنية المذياع. صوت

www.alkottob.com

المرأة التي تغني حار وعذب. وتخيّل يوسف نهراً يجوس المدينة تحت الأرض عبر السكينة والظلمة. صوت المرأة يبوح برثاء أسود. النهر صامت والماء يتسكع صامتاً تحرسه الأشباح بينما الغناء يضمحل ويتلاشى.

وبلغ سمعه طرق خفيف على شباك المطبخ، فذهب إلى المطبخ وهو حانق ومغتبط في آن واحد، ووقف أمام النافذة الصغيرة.

قالت سميرة: «يوسف».

وأردفت بلهجة وديعة: «زعلت؟».

فأجاب بغيظ: «أنا لست من حديد».

ـ: «كنت خائفة من أمي».

ـ: «أمك نائمة».

ـ: «كنت خائفة».

ـ: «ممن؟».

ـ: «لا أعرف».

وصمت يوسف، وتخيّل أمها: امرأة طويلة القامة، جميلة، شهية، تتكلم بصوت عال قاس.

قال: «أمك مزعجة».

فقالت متسائلة: «وأمك؟».

ـ: «ستحبينها».

ـ: «لماذا تركت بيت أهلك؟».

ـ: «لا أحب الحديث عن أهلي».

www.alkottob.com
www.alkottob.com

ـ: «هيا أخبرني وإلاّ سأزعل».

ـ: «كان أبي يريد مني أن أعطيه أجرتي كلها ويحاول منعي قراءة الكتب التي أحبها زاعماً أن الكتب تفسد العقل وتضرّ الجسم وتضيع الوقت وتبدد المال».

ـ: «صف لي أباك».

ـ: «طويل ويغضب بسرعة».

ـ: «وأمك».

ـ: «جميلة».

ـ: «هل هي تحب أباك؟».

ـ: «لم تحبه في البداية».

ولاذ بالصمت، فحثته على متابعة الكلام قائلة: «ثم ماذا حدث؟».

ـ: «كفَّت عن التذمر».

وصمتا، وأخذ يوسف يرقبها مأخوذاً كأنه يراها أول مرة، وكانت جميلة، لها نهدان ناضجان وفم أحمر.

ـ: «هل تهربين معي؟».

فابتسمت وقالت: «إلى أين؟».

ـ: «قولي نعم أو لا».

ـ: «سأهرب».

واستمر يرمقها مسحوراً بفتنتها، وارتجف العالم كله أمام عينيه المثبتتين على شفتها السفلى الرقيقة، وقال: «اذهبي إلى الباب».

www.alkottob.com

ـ: «لا لا».

ـ: «سأزعل».

فنهضت وابتعدت عن النافذة، فغادر المطبخ، وصعد الدرج مسرعاً، وفتح الباب قليلاً، ووقف منتظراً، وسمع باب غرفة الضيوف يفتح بكثير من الحذر ثم بدت سميرة خجلة متهيبة، ففتح الباب دون أن يحاول الخروج، ومدّ يده نحوها، وقال بصوت شديد الخفوت: «تعالي».

فظلت واقفة على مبعدة تبتسم دون حركة. ومدّ يديه الاثنتين. وكان جسده آنئذٍ صوتاً يتوسل بضراعة، فدنت منه بتردد، وأمسك يوسف بيدها، وجرّها إلى الداخل بحركة مباغتة، وأغلق الباب خلفه، واحتوتهما ظلمة الدرج، وأحاط وجهها براحتيه، وبحث فمه عن شفتيها، وما إن انزلقت شفتها بين شفتيه حتى تدفقت نار مجهولة في دمه وامتزجت بلحمه، وانتشى بليونة الجسد الذي يحتضنه بين ساعديه، وأحس بسميرة لصقه صغيرة مبتهجة لاهثة.

وتناهى إلى سمعهما وقع أقدام، فتجمدا، وتخلّت ذراعاه عن خصرها إنما ظلا متلاصقين، وصعد القادم المجهول إلى أعلى حيث الطابقان الثاني والثالث، وعندئذٍ فتحت سميرة الباب وانفلتت عائدة إلى البيت.

وأوصد يوسف الباب دون صوت، وانحدر إلى أسفل، ومضى يذرع غرفته متأملاً الجدران بعينين مذهولتين خاضعاً لحيرة ممتزجة بخوف غامض. سيشتري سيفاً محدودب النصل، وسيشتري جواداً وعباءة ويرتحل إلى الصحراء.

www.alkottob.com

وارتمى متهالكاً على السرير. يغمض عينيه. يقبل ليل مبهم ممتزج بزئير أسود. أرحل نحو أشد الدروب حلكة. يوسف جثة. أقبل رجال أمهم هي أم يوسف. سيلقونه في البئر ولن ينقذه أحد. وأتت الضباع إلى كهف يخيم عليه الموت والليل. سميرة تحب الشمس واللون الأبيض. القمر ذئب يعشق فتاة ميتة. يزأر الأسد ويتراجع إلى الوراء متأهباً للوثوب. انهض أيها البدوي المشعث الشعر وأطلق صرختك رعداً غاضباً. أواه يا أمي لن أملك سيفاً وعباءة وجواداً. رماح أجدادي مدفونة تحت جبال الرمل. يوسف لم يلوِّح بسيف في وجه شمس مسمرة فوق أرض معركة ولم يمتط صهوة جواد. يزأر الأسد. الموت يحشو حنجرتي قطناً ويسرق الهواء.

يرتعد يوسف ويفتح عينيه مستعيداً طمأنينته، ويتذكر سميرة. ستنحدر يوماً إلى قبوه، وستكون مفعمة حناناً ومتعطشة إلى حب رجل لا وجه له. سيلعق نهديها بلسانه متذوقاً طعم العرق المالح الممتزج برائحة جسد الأنثى الفتي، وسيكون لنهديها شذى غامض، وستجتاحه الرغبة الجارفة في الموت لحظة يتلقف فمه حلمة نهدها.

وأحنقه ندم نما في أعماقه، وبدت له تخيلاته وحلاً يحاول ان يغرق سميرة الشبيهة بياسمينة بيضاء، ولكنه شعر في الوقت نفسه ان العصافير التي ترفرف في الأعالي لا بد من انها بائسة متعبة، وحياتها مجرد رحلة عبر فراغ صامت، وبحث عن سطح صلب.

وعاودته رغبة قديمة في ولوج أشد العوالم ظلاماً، واشتد

www.alkottob.com

شوقه إلى ان ينزلق هارباً نحو عالم النساء اللواتي يدخلن الغرف ذات الأبواب التي توصد خلفهن بإحكام، فيتعرين بسرعة من ثيابهن ويستلقين على ظهورهن، وبعضهن لا يتعرين إنما يكتفين برفع الثوب عن نصف الجسد. ولا يخجلن وهن يتناولن النقود من يد رجل ما. عالمهن حقيقي مكتظ ببشر أحياء خاضعين للنزوة والحماقة والشهوة والحقد والآهة المصطنعة والآهة المنسلة من العظم. سيعشق مومساً ثم يبصر الميتة عارية عرياً كاملاً. ها هي ملقاة دون حراك في قاع الحفرة. لن تبكي. لن تضحك. لن يقرصها شاب في الطريق. لن تخشى الاصطدام بالسيارات. لن تسمع كلمات غاضبة تنهال من فم أب عجوز يختبىء في أعماقه سلطان تركي.

وتخيّل والده سلطاناً تركياً، ثمة عمامة كبيرة على رأسه، وله لحية سوداء تضفي على وجهه مسحة من الشر الخالد، وحوله عيون خاشعة. مولاي. وينحني أتباع ويجلبون له أجمل النساء من مختلف أصقاع الأرض.

سيقولون له: «هذا هو المجرم».

وسيتكلم السلطان فيقول: «ارموه في البحر».

فيضعون في قدميه أثقالاً حديدية، ويلقونه في الماء. سأغوص كحجر ثقيل. وعاد يوسف إلى بيته العتيق. أمه تصرخ. أخوته الصغار يتشاجرون. أبوه ينفخ دخان نرجيلته بينما وجهه متشبث بعبوس قاتم. فطمة زوج أخيه الكبير تضحك وتتمطى، تقطر عذوبة وارتعاشاً ينبض بالحنين إلى النشوة. وفي الأزقة يتراشق الأولاد بالحجارة ويسيل الدم

www.alkottob.com

من رأس يوسف. يصفعه معلم المدرسة على رقبته حين يعثر على قملة في شعره ويعيده إلى البيت كي يغتسل. يحملق يوسف بشراهة في أرغفة بيض طازجة. يقبّل ابنة الجيران. ما اسمها؟ اسمها لميا. ويضحك والده هازئاً به. اقرأ اقرأ. الكتب ستجرك إلى جهنم. ويحقد يوسف على أخيه الكبير لأن فطمة زوجه. يتسلل إلى غرفتها ليلة كان أبوه وأخوه مسافرين. وعندما يعود إلى غرفته يجد أمه بانتظاره تقف مشدودة القامة تسأله بصرامة: «أين كنت؟». يرتبك. يخاف، ولكنه يتشجع. أخبري أبي وأخي. فليطلقها أخي وسأتزوجها. أمي حريصة على تماسك الأسرة. طردتني من البيت الذي ولدت فيه. أمي لا تحبني. سأغادر البيت وأذهب إلى جهنم ممتطياً دراجة أو حصاناً خشبياً. أمي تحب الأخلاق الحميدة فقط. أبي لا يحب سوى الأولاد الذين يشتغلون في النهار وينامون في الليل ولا ينفقون نقودهم ويقبّلون يده باحترام. لن أقبّل يدك يا أبي.

يوسف صوت وحيد. سأترك الحارة للذباب الوسخ. سيعيش كما يريد. سأجد عملاً ذا أجرة وفيرة، وأستأجر غرفة في شارع عريض، مبانيه حجرية، وأناسه أنيقون يعتذرون بلطف إذا اصطدموا بشخص ما. تفو. ليس لك يا يوسف إلاّ القبو والمعمل. سيحرق منازل الأغنياء ويأكل أعين أطفالهم ويمزق لحم نسائهم. الأغنياء وحدهم يعيشون. هذه حقيقة صلبة كحائط.

وغرق يوسف في اغفاءة. وعندئذٍ التصق بحائط ترابي، وحاول أن يحمي جسده بيديه. وكانت المدية في يد رجل

www.alkottob.com

لم يتمكن يوسف من رؤية وجهه. المدية كامرأة من شهوة تطعن اللحم، فتتابع شهقات يوسف إثر كل طعنة، ويئنّ ويتقلّب على وجه سريره الضيّق. وكان ثمة صوت كفحيح الأفعى ينبعث من بين أسنانه المصطكة. وانحنى القاتل فوقه. وحينئذٍ أبصر يوسف وجه أخيه الكبير.

وأفاق من نومه، وتنهد بارتياح إذ أدرك أن ما حدث لم يكن إلاّ حلماً، وترك السرير، ووقف في وسط الغرفة، وتمطى وتثاءب بينما كان يتناهى إلى سمعه أصوات الأولاد الذين يلعبون في الشارع.

وضع حول عنقه منشفة زرقاء، ثم ذهب إلى المطبخ، وهناك غسل وجهه بماء بارد، وأعدّ فنجان قهوة كبيراً، وحمله إلى الغرفة، ووضعه على سطح الطاولة الخشبية، وجلس على الكرسي، وراح يدخن ويرتشف بين الفينة والفينة رشفات ضئيلة من القهوة ذات المذاق المر.

وركّز يوسف نظراته على سطح الطاولة حيث كانت دمية صغيرة من قماش أبيض متسخ. إنها صديقته، وقد رافقته منذ صغره. وتطلع فيما حوله مكتئباً. ماذا سيفعل لو كان ابن ملك؟ سيطوف العالم ثم يموت وحيداً على سرير بارد في فندق ما. سيموت ضائع الاسم والوجه، وسيدفن في قبر ليس له شاهدة من رخام نقش عليها اسمه وتاريخ ولادته وموته.

وأمسك يوسف الدمية، وتأمل وجهها الذي رسمت ملامحه بخطوط من قلم رصاصي، وطغى عليه سخط وحشي لعلمه أنه لن يكون في الأيام القادمة سوى مخلوق

www.alkottob.com

مهمل.. عامل ذي أجر قليل. وأخرج من درج الطاولة مدية، وفصل بحدِّها المرهف رأس الدمية عن جسدها، ورمى الرأس والجسد إلى عتبة الغرفة حيث أعقاب السجائر مبعثرة. رحلت طفولته، ونأت عنه دون أمل بعودة ثانية. لن يكون له أطفال. لن يسمع الأصوات الرفيعة النزقة تناديه: بابا. لن يكون له بيت، ولن يملك قطة بيضاء. فطمة زوج أخيه تحب القطط البيض. لم تتكلم فطمة لحظة أغلق باب غرفتها خلفه. كانت مضطجعة على السرير، مفتوحة العينين. ولم تبد أي دهشة لتسلله إلى غرفتها كأنها كانت تنتظر مقدمه في الليالي كلها، واستسلمت له دون حركة، لكن أنفاسها المتهدجة كانت تعبر عن نشوة جارفة.

ورمق يوسف تمثال البدوي الخشبي الصغير الذي كان قابعاً على سطح الطاولة قرب كتاب، وكان واثقاً بأن البدوي سيتكلم في يوم من الأيام إذ يرفع الجواد قائمتيه الأماميتين إلى أعلى في جموح مباغت ويطلق صهيله الذي ينادي الصحارى النائية. وتذكر يوسف شعر فطمة يوم جلست تمشطه تحت ضياء الشمس، وتمنى لو تلمسه الآن أصابعه. وانساب إليه طرق خفيف على نافذة المطبخ، فهرع إليها مستطلعاً، فإذا سميرة باسمة العينين. سألها: «أنت زعلانة؟».

فبانت الدهشة على وجهها، وقالت: «لماذا أزعل؟ كدت أموت من الخوف. ظننت القادم أبي».

وكانت شمس النهار توشك ان تأفل. وقد وقفت

www.alkottob.com

سميرة لحظات يغمرها اصفرار الشمس الغاربة ثم انحنت وقالت: «أليست الشمس جميلة؟».

وبدت سميرة لعينيه كأنها مرتبطة بصورة ما بالشمس والياسمين الأبيض، وكانت شديدة الفتنة كأن رائحة الياسمين قد تكثفت وتجسدت في لحم أبيض حار.

سألها: «أين أمك؟».

ـ: «ما زالت نائمة».

ـ: «ليتها تظل نائمة».

ـ: «أنت لا تحبها».

ـ: «وأنت؟».

ـ: «أنا أحبها فهي أمي».

ـ: «هل كنت تحبينها لو لم تكن أمك؟».

ففكرت هنيهة ثم تنهدت وقالت بمرح: «أتمنى لو كنت شاباً».

وابتسمت بحبور، وتابعت الكلام قائلة باندفاع: «أريد ان أكون شاباً طويل القامة. اسمي يوسف. تتهدل خصلة شعر أسود على جبهتي. أشتغل في معمل، وأرتدي بذلة رمادية وربطة عنق حمراء وقميصاً أبيض، وأضع سيجارة بين شفتي. اصفّر في الطريق، وأذهب حيثما أشاء، وأعود إلى البيت في نصف الليل».

فضحك يوسف وقال: «وهل ستنجبين بنتاً لطيفة اسمها سميرة؟».

www.alkottob.com

فلم تأبه لمقاطعته، وتابعت قائلة بحرارة: «أريد ان أكون هواءً».

وضحكت كطفلة صغيرة، وأردفت: «سأذهب الآن.. أخاف أن تكون أمي قد أفاقت من نومها».

وعاد يوسف إلى غرفته، ومضى يتجول فيها ضجراً متذمراً. وتوهجت في مخيلته شمس حمراء ابتلعها بحر عميق، ورجع ثانية إلى المقبرة، محني الظهر، وركع على ركبتيه، ونبش التراب تواقاً إلى التسلل نحو أسفل حيث الفتاة الميتة نائمة وليس لها ساعة صباح.

وزعق بوق سيارة في الشارع، وتبعه صرير فرامل، تلته ضجة صماء، فتخيّل طفلاً أشقر الشعر، مسحوق الرأس تحت عجلات السيارة، واستطاع معرفة وجه أخيه على الرغم من تهشمه. وجلس خلف الطاولة، واتكأ عليها بمرفقيه مسلماً وجهه لراحتيه، وتطلع إلى تمثال البدوي. وصعدت موسيقى من أعماقه، وامتزجت بشعاع الشمس الآفلة، وتغلغلت في الهواء آهة مديدة صادرة عن فتاة صغيرة، تجمعت عذوبة العصافير في حنجرتها.

واستيقظ بدوي في أعماق يوسف، بدوي جلف، مشعث الشعر، يملك خنجراً مقوس النصل، ويملك خيمة في صحراء مجدبة، ولا يملك امرأة، وها هو ذا الآن ينحدر إلى المدن تقوده رغبة هوجاء في بيع عينيه من أجل ضحكة امرأة. فطمة امرأة جميلة، ضحكتها حديقة خضراء.

وغمرته المرارة، ونهض واقفاً، ولكنه عاود الجلوس إذ لم يكن لديه ما يفعله. وتناول جريدة اشتراها قبل أيام، وابتدأ

www.alkottob.com

يقرؤها بعناية واهتمام كبيرين. واسترعى انتباهه خبر عن امرأة ماتت في ظروف غامضة، فتخيل ما حدث: امرأة شابة متزوجة من رجل جديّ يتصف بالنبل والوداعة، وهما يسكنان في غرفتين على سطح بناية. ومالك البناية رجل كهل زوجه صفراء هزيلة. يقرع مالك البناية الباب.

تفتح الزوجة الشابة الباب.

ـ: «الايجار».

ـ: «سيدفع زوجي لك في آخر الشهر».

ـ: «سمعت هذا الكلام نفسه في الشهر الماضي».

ـ: «كنا ننوي ان ندفع لك لكن طفلنا مرض فجأة».

ـ: «ادفعوا الايجار أو اخرجوا من بنايتي».

تتوسل المرأة، تقول بصوت مرتجف: «انتظر حتى آخر الشهر».

يتأملها الكهل. تبدو له شهية بضة فتية، فيمد يده إلى وجنتيها قائلاً: «سأكون لطيفاً مع الناس اللطفاء».

فتتراجع إلى الوراء مذعورة، وتحاول الخلاص من ذراعيه. ولا بد من أنها قد تخيلت آنذاك آلاف العيون التي سترمقها بازدراء إذا امتلك جسدها رجل ثان، فقاومت بضراوة، وخدشت أظفارها وجهه. يوسف هو الكهل، وللمرأة وجه فطمة. سيمزق ثوبها. هرعت نحو سور البناية المصنوع من الاسفلت، وارتمت إلى أسفل حيث ارتطم لحمها بإسفلت الشارع، وانسحق، وتناثر الدم في بقعة كبيرة. لن يستطيع رؤية الوجه الميت المدمى.

www.alkottob.com

وقذف يوسف الجريدة بعيداً، واستولى عليه عطش شديد، فذهب إلى المطبخ، وتجرع كوب ماء، فأحس كأنه ولد تواً بينما كان الماء يتسرب إلى حلقومه، وعاد إلى الغرفة، ولم يكن لديه ما يفعله. لن يذهب إلى المقهى. لن يذهب إلى السينما. الشوارع مملة لها نهاية معينة.

وأحسّ أنه متعب، واهن القوى، فعاد إلى الاستلقاء على السرير بينما هو يقول لنفسه: ماذا سأخسر لو تحولت كلباً؟

وكان تمثال البدوي ما زال على سطح الطاولة، وكانت العتمة قد بدأت بالزحف إلى الغرفة، فازدادت بهجة البدوي الذي يمقت الشمس. سيصهل جواده عما قريب ويعدو نحو صحارى دون ظل. وكان البدوي ذا وجه غامض مغلف بشرّ هرم. وتضاعف حنين يوسف إلى الموسيقى. وصعدت موسيقى البدوي كأنها نداء للسفر إلى سبع جزر ضائعة وراء سبعة بحار. ولم يقل البدوي كلمة لأنه من خشب، ولأن يوسف لم يغادر المدينة التي ولد فيها، ولا يعرف كلمات غريبة. أقفرت الأرض وليس فيها غير جياد هزيلة. انهض يا حزن، يا فتى من ذهب أسود. فلتخفق رايتك. وصعدت الموسيقى أعلى فأعلى، وتغلغلت عبر العتمة والهواء، وارتعشت حقولٍ خضر وامتدت، تتعرج فيها أنهار، وتحول البشر أطفالاً ينصتون لأصوات البحر، وتداعب الريح خصلات شعرهم بينما ترقب عيونهم أشرعة القوارب تنأى.

وتفاقم حنين البدوي إلى المدن الغريبة حيث الصخب يلقي بأنشودة ظافرة. وكان يوسف يعلم أنه لن يرحل إلى

www.alkottob.com

أي مكان، وسيضيع نهاره في معمل خارج المدينة، وسيتلطخ بالسواد والزيت والعرق، وسيلمس الحديد البارد، ويخضع للغضب الكامن في أصوات الآلات. وستكون عينا صاحب المعمل سوطين قديمين مبتلّين بالدم. حلم يوسف مرات عديدة انه ألقى صاحب المعمل وهو حي في بوتقة ضخمة مملوءة بالحديد المصهور، وحلم أنه يذبح فطمة، وانتشى بتخيله سماع صرخات حيوان يلتقي فجأة بوجه الموت. سأموت في فراشي بشرايين معصم مقطوع. سينثال الدم إلى أسفل ويبوح بأغنية قرمزية. لن أبصر غراباً يحفر قبراً لغراب آخر صريع. سأحمل جثة أخي حتى موتي. لن يكون لجثتي قبر.

وسمع ضجة في حديقة البناية، فهبّ واقفاً، وأرهف سمعه، فترامى إليه صخب رجال عديدين، واستطاع ان يميز بسهولة صوت والد سميرة يرحِّب بضيوفه. ودخل الضيوف البيت، وسمع يوسف وقع أقدامهم فوقه. وكانت الظلمة تحيط به كثيفة موحشة، فأغلق النوافذ الثلاث ثم أضاء المصباح الكهربائي، فبدا تمثال البدوي على سطح الطاولة خشبة ضئيلة الحجم. أين سميرة؟ صوت الأنثى ناء، وليس للخيبة أغنية. أحب الماء وأغنية الماء. وبدا القبو ليوسف كهفاً قبيحاً، فصعد الدرج بعد أن أطفأ المصباح الكهربائي، وفتح الباب، وغادر القبو إلى الحديقة، واستنشق بنهم الهواء الرطب. ولوحت له سميرة بيدها وهي واقفة في الحديقة الخلفية التي يفصلها عن الحديقة الأمامية باب خشبي، وأشارت إليه طالبة منه ألاّ يذهب، فأشار إليها أنه

www.alkottob.com

سيمشي قليلاً ثم يعود. وكانت نوافذ غرفة الضيوف في الطابق الأول مفتوحة ينساب منها النور وأصوات رجال.

وخرج من الحديقة إلى الشارع، وسار تحت المصابيح الكهربائية وهو يشعر بأنه ليس إلاّ تمثال البدوي وقد اكتسى باللحم. ودسَّ يديه في جيبي بنطاله، وأشعل سيجارة، وقال لنفسه بغتة: يجب ان أعيش كغيري من الناس.

لقد قرأ الكثير من الكتب. سيحرق الكتب. الموتى لا يقرأون كتباً إنما هم يعبرون العالم ليلاً، ويطرقون أبواب بيوتهم القديمة بقبضات ليس لها لحم، وينادون الأهل، وينادون الأعداء دونما جواب. ليس للكتب أفواه وصرخات.

ومرّ بجانب يوسف شاب وفتاة. تضحك الفتاة، وتمتزج ضحكتها بأغنية منسابة من أحد البيوت يغنّيها صوت خشن مرتجف كمياه البحر ساعة أفول الشمس. وأحسّ يوسف أن الضحكة والغناء يختلطان معاً في دمه. وخضع لشوق ملح إلى القمر الذي لم يبزغ بعد.

وضجر بعد حين من المسير، وعاوده الحنين إلى سميرة، فرجع أدراجه نحو القبو. أين سميرة؟ سميرة جميلة. سأقطف الياسمين المختبىء في لحمها، ولن تظل النجوم في الأعالي. سبع ملاءات سود هاجعة في دم أمي. ودلف إلى داخل قبوه، وأضاء المصباح الكهربائي، ولم تمض سوى لحظات حتى تعالى قرع على نافذة المطبخ، فأطفأ مصباح الغرفة، وذهب إلى المطبخ، وهناك كانت سميرة جاثية قرب النافذة، تترامى حولها أنوار متسللة من الشارع.

www.alkottob.com

-: «أين أمك؟».

-: «ترضع أخي الصغير».

-: «وأبوك عنده ضيوف؟».

وصمت يوسف هنيهة، استسلم خلالها لنزوة جامحة، فعاود الكلام قائلاً: «سميرة أريد..».

فقالت سميرة بلهفة: «ماذا تريد؟».

-: «أريد رؤية صدرك».

-: «أنت تراه».

-: «أريد رؤيته عارياً».

فانسابت ضحكتها خافتة مفعمة بالعذوبة والارتباك. وامتلكت يوسف غبطة عارمة، دفعته إلى التوسل بحرارة.

-: «لا».

-: «لماذا؟».

وظلت سميرة صامتة. وابتدأ فرح يوسف ينحسر، ولكنه عاد جامحاً إذ أبصر سميرة تتطلع فيما حولها وهي جاثية على ركبتيها ثم فكت أزرار قميصها، وكشفت القميص بحركة سريعة عن نهدين شديدي البياض، وكانا كتفاحتين فجتين وشهيتين. وخيّل إليه أنهما تألقا عبر العتمة. ثم غطتهما بالقميص، فقال يوسف: «مرة ثانية».

-: «لا تكن طماعاً».

ورانت السكينة هنيهات. وكان الفرح في تلك اللحظة خيمة من نجوم يرتعش تحتها مخلوقان تفصلهما نافذة لها

www.alkottob.com

قضبان ونسيج حديدي. ووجد يوسف نفسه منساقاً إلى أن يسأل سميرة: «أتحبينني؟».

ـ: «أحبك».

ـ: «ستهربين معي».

ـ: «سأهرب».

فأحس انه سيدها، وقال: «اذهبي نحو الباب».

ـ: «لا أقدر».

ـ: «لن ينتبه أحد».

ـ: «لا».

ـ: «سأزعل».

ـ: «لا لا».

وتنهدت ثم أردفت: «أنا متعبة جداً. اشتغلت طوال النهار. سأذهب لأنام».

وتثاءبت بصوت مسموع، فقال يوسف: «لا تذهبي».

فتمنت له ليلة سعيدة، وانفلتت كهرة متوحشة، وابتعدت عن النافذة عائدة إلى داخل البيت. ورجع يوسف إلى الغرفة وقد استولى عليه الغيظ والخيبة القاسية. وغادر القبو متعجلاً.

وكانت الشوارع لا تزال تعجّ بالحركة، فثمة سيارات تهدر في وسط الطريق، وناس على الأرصفة.

وقصد المقهى الذي لا يؤمُّه سوى عمال من مهن عديدة، ودلف إلى داخله، فرحب به صاحب المقهى أبو

www.alkottob.com

قاسم بصوت عال. وكان المقهى راكداً كنهر سجين في قبضة صيف قائظ. واقترب أبو قاسم بعد حين من يوسف الذي بادره متسائلاً: «ألم يأت أحد؟».

ـ: «لم يأت أحد».

ـ: «هات فنجان شاي».

لم تمض سوى هنيهات حتى كان كوب الشاي موضوعاً أمامه على سطح الطاولة الخشبية العتيقة. وأجال يوسف نظراته فيما حوله، فألفى وجوه الرجال متعبة شاحبة، واشتاق إلى أن يشاهد وجهه في مرآة على الرغم من أنه يعرف ان وجهه متعب وشاحب ويائس. يرتشف يوسف الشاي. يدخن. المقهى من خشب وتراب. أنا من لحم ودم. سينبثق الدم أحمر لو جرحتني مدية. الناس من لحم. الآلات من حديد. الحديد بارد وناعم. المعمل من حديد ولحم وحجر. أين أصدقائي؟ أين هم؟ هل تحبهم يا يوسف؟ وحشة يوسف ذراعان هزيلتان تناديان مخلوقاً ما. أصدقاء يوسف عمال مثله، يأكلون بنهم وسرعة، ويتضاربون بقبضات صلدة، ويرمقون النساء الجميلات بابتهال وشهوة وكآبة، وتبرق عيونهم بحنق لحظة يموت حلم ما. الحلم راية بيضاء منحت ظلاً نديا لأيام طفولتي. الرايات البيض محطمة في قعر المدينة. الغضب أغنية رجال مهزومين. أجهل العدوّ الذي هزمني.

يوسف يدخن. وكوب الشاي أمامه فارغ. أقبل ثلاثة من أصدقائه العمال، وتحلقوا حوله.

ـ: «أين كنتم؟».

www.alkottob.com

«في السينما».

وابتدأت الكلمات تتناثر من الأفواه الأربعة وتختلط. وتكلم يوسف حيناً، وصمت حيناً آخر، وأنصت ببلاهة:

«نمت عشر ساعات».

«نم حتى يأتي عزرائيل».

«سأصير غنياً».

« كيف؟».

«سأتزوج مئة امرأة».

« كيف؟».

«سأسافر».

«إلى أين؟».

«أمي جميلة».

«خذها إلى المقبرة».

«سأتزوج أمك».

«أمي تحب الشباب الشقر».

«سأصبغ شعري».

«أتفضل السمراء أم الشقراء؟».

«السمراء للشتاء».

«والشقراء؟».

«الشقراء للصيف».

www.alkottob.com

وهيمن الصمت قليلاً، ثم قال يوسف: «ماذا نفعل هنا؟ هل نظل جالسين حتى آخر الليل؟».

«لنذهب ونسكر».

واجتاحت يوسف رغبة عارمة في أن يكون في خمارة يحتسي كأساً من العرق البارد اللاذع، فوافق بحماسة، ولكنه ما إن غادر المقهى برفقة أصدقائه حتى تلاشت رغبته، وحل محلها توق إلى الفرار، فتوقف عن السير على حين غرة، وقال لأصدقائه: «لن أذهب معكم».

«لماذا؟».

ـ: «لا أريد ان أسكر».

«ماذا تريد إذن؟».

ـ: «لا أريد أن أسكر».

«هل تريد امرأة؟».

ـ: «سأذهب لأنام».

«سنجد امرأة ونأخذها إلى قبوك».

ـ: «لا أستطيع. نوافذ الجيران مفتوحة دائماً».

«أنا سآخذكم إلى بيتي».

«وزوجتك؟».

«ستنام الليلة عند أهلها».

«أين سنجد المرأة؟».

«أنا أعرف شخصاً سنجد عنده ما نبغي».

www.alkottob.com

«هيا.. لنمش.. ماذا ننتظر؟».

وسار الشبان الأربعة. وابتهج يوسف، فقد كان يريد أن يفعل فعلاً حقيقياً.

«ها هو الشخص .. البدين».

وأشار أحد أصدقاء يوسف إلى شاب بدين، قصير القامة، يتسكع على رصيف قبالة دار السينما.

«انتظروني قليلا».

وانتقل إلى الرصيف الآخر، وطفق يتحدث مع الشاب البدين.

وظل يوسف واقفاً قرب صديقيه اللذين كانا يتحدثان بمرح، وعادت إليه رغبته في الفرار. وكانت رغبة ضارية جعلته يرتجف ويحس أن له في مكان ما قمة، وهو الآن يصعد نحوها ليطلّ على العالم من أعلى.

تحركت قدما يوسف، وسلك طريقاً فرعية بينما كان صديقاه يصيحان بدهشة: «إلى أين؟».

وهرول وهو يحس أنه مذنب وخائف. وكان الليل بأقدامه الزجاجية السوداء يتجول في الشوارع حيث الاعلانات الكهربائية تضيء ثم تنطفىء: فنادق.. دور سينما.. مكتبات.. مقاه.. مطاعم.. سيارات.. عربات ترام تنساب فوق قضبان حديدية.

ومضى يوسف يسير مبتعداً عن صخب المدينة والأبنية المضاءة، وتغلغل شيئاً فشيئاً في عالم الأزقة الضيقة، أزقة

www.alkottob.com

طويلة، تنتصب على جانبيها بيوت من تراب، متقاربة، متآلفة.

وتسرَّب إلى أعماقه حنان مباغت، واقترب من مسجد، مئذنته صاعدة إلى أعلى حيث السماء السوداء والقمر الأبيض. ولو سمع في تلك اللحظة صيحة «اللّه أكبر» لالتصق بالحائط مرتعداً وخاشعاً غير أن الأصوات كانت نائية. واندفع إلى الأمام، وكان للأسى صوت جارح، فالأزقة تهزم أمام طوفان من الاسمنت والحديد والحجر.. وقد ولد ناس جدد لهم وجوه غريبة لا تبتسم. وغمر يوسف الأسف لاحتضار الأزقة، وتذكر دميته المقطوعة الرأس، وشعر بحنين إليها. وحثّ خطواته، تدفعه قوة ملحة إلى رؤية البيت القديم الذي ولد في غرفة من غرفه. وحين وصل إليه، توقف هنيهات على مبعدة من بابه الخشبي، وتأمله بنظرة كسيرة. وكان ثمة مصباح كهربائي يلقي عليه بحزمة من ضوئه. ودنا يوسف من الباب حتى كاد يلتصق به، وتطلع فيما حوله، وكان الزقاق خاوياً تماماً، فألصق وجهه بخشب الباب كأنه صدر حنون، وسمع أصواتاً تنبعث من الداخل، وخيّل إليه ان أحدها كان صوت فطمة، فارتجف بهلع، وتمنى لو يجهش بالبكاء غير أن صوت وقع أقدام تناهى إلى مسمعه في تلك اللحظة، وحفزه إلى الابتعاد عن الباب والمسير مجدداً إلى الأمام، وقادته قدماه إلى الشوارع العريضة.

وبلغ يوسف قبوه، ودلف إلى جوفه، وخلع ثيابه دون

www.alkottob.com

أن يضيء المصباح الكهربائي، وتمدد على السرير، وكانت السكينة ترين فيما حوله.

وقال يوسف لنفسه: يجب ان أنام لأنهض باكراً وأصل إلى المعمل في الوقت المحدد.

وأرهف سمعه، وكان الطابق الأول صامتاً. أين سميرة؟ لا بدّ من أنها نائمة. وتخيلها مستلقية على سريرها. شعرها متناثر على وسادة بيضاء، وثمة وداعة آسرة مهيمنة على وجهها. وكانت الميتة في القبر مستلقية أيضاً على ظهرها فوق التراب، صبية في مقتبل العمر. لن تحس بوحشة لأنها ميتة. القمر فوق القبر.

وأغمض عينيه عائداً إلى المقبرة، وانزلق إلى جوف القبر. ستتلقفه العتمة. فطمة أيضاً مضطجعة على السرير لصق أخيه. واستسلم لاغفاءة. الأسماك في البحار. أسماك تبرق ذهبية حمراء عبر الماء والضوء. يئن. ريح الصحراء بعيدة. يوسف أمير قبيلة يملك جواداً وسيفاً وخيمة وجارية تغطي وجهها بحجاب كثيف أسود. يوسف يريد رؤية الوجه. إنها ليست الميتة، ومدَّ يده وحسر الحجاب، ولم يكن وجه سميرة إنما وجه فطمة. ونمت حسرة مؤلمة في قلبه لعلمه الخفي أن هذا ليس إلاّ حلماً. أوه. الأسماك في البحار. النجوم تبزغ ليلاً. الطفل يطلق صرخة فزع لحظة يبصر أول مرة شمس الأرض. الماء. يوسف يسمع صوت ماء. ماء يجهل مكانه. الماء تحت الأرض. يحب الماء. يمقت الماء. يحب اخضرار الحقول واصفرار الرمال وتوهجها تحت حريق الشمس. وبدا له أن الماء ليس إلاّ فتى

www.alkottob.com

أضاع جواده في شوارع شبيهة بدهاليز ضيقة حيطانها عالية. صاحب المعمل يضحك. الشمس تطلع من الأفق الشرقي. القمر تفاحة صفراء. صاحب المعمل يأكل تفاحاً. الشمس تأفل مساء وتتوارى. لقد أضاع بدوي خيمته، وها هو ذا الآن في مدينة جاثمة تحت أقدام جبل. يوسف يتسلق الجبل. سيصعد الجبل حتى قمته. هل يهب هواء الجبل ثروة أو جناحين أو اسماً جديداً؟ أقبل والد يوسف. إنه ليس سلطاناً تركياً إنما هو رجل كهل، محني الظهر، خشن اليدين، وجهه كثير التجاعيد. أين أنت يا ولدي؟ تعال وساعدني. وانتحب يوسف. أمه شاحبة الوجه، صامتة، تربط جبينها بمنديل أبيض، عيناها مخلوقان مهزومان عادا جريحين من مذبحة. وتزايد نحيب يوسف، وأفاق من نومه مضطرباً، ومسح دموعه، وحاول أن يتذكر لماذا كان يبكي في أثناء نومه، فتذكر فقط أنه شاهد أمه، وعاود النوم. نهر تحت الشمس. نهر يحفر ماؤه أقنية تحت الأرض. يسمع هدير الماء. البدوي يحب الماء. العشب الأخضر ينمو على فم يوسف وفي عينيه. فطمة مغمورة بالماء، تضحك منتشية. يوسف طفل عاري القدمين، يعدو عبر البساتين، ويسرق الثمار الفجة. فطمة تصرخ مستغيثة، فالماء يوشك ان يبتلعها. يوسف يمد ذراعيه متخبطاً فلا تصلان إلى فطمة. وشاهد يوسف بحراً أزرق وسماء زرقاء. وكان الموج يندفع إلى الأمام ثم يتراجع بإيقاع كأنه موسيقى اللون.

وفتح يوسف عينيه متعباً متخدراً، وأدهشه أن يحس أنه

www.alkottob.com

قد أتى بعد فوات الأوان، وعاد إلى الاستسلام للسبات بينما هو يفكر في أن الناس يسيرون على أقدامهم في الشوارع. وتزايد استسلامه للنوم، وشاهد وجه فتاة ووجه طفل. أين رآهما؟ وجه فطمة. سميرة. الميتة. ثمة سلّم خشبي مظلم. أحدهم يقرع بأقدامه درجاته. يسمع يوسف الصوت بوضوح. الدرج مظلم. يختفي في ليله وجه فطمة. ويشتد القرع. فيفتح يوسف عينيه مذهولاً، فإذا الطرق فوقه على سقف الغرفة. وتوقف الطرق على حين غرة. وخيّل إلى يوسف أن الطرق الذي سمعه مجرد وهم، ولكن الطرق ما لبث أن عاد، فتساءل: هل هي سميرة؟

وترك سريره، وصعد درج القبو، وفتح الباب باحتراس، ولكن صريراً حاداً مزق سكون الليل، وخرج يوسف من الباب عاري القدمين. وفُتح في تلك اللحظة باب غرفة الضيوف في الطابق الأول على مهل، وبدت سميرة كطيف، وأبصرت يوسف يدنو منها شبحاً أسود طويلاً صامتاً، وهمّت بالتراجع غير أنها تقدمت نحوه، وأسلمت رأسها لصدره، ولم تحاول ساعداه تطويق خصرها، ولمست شفتاه شعرها بينما جسداهما متلاصقان. وكانا آنئذٍ مخلوقين تلاقيا دون كلمات واستسلما لحنان مشوب بنشوة باهرة. وكان لأيّ حركة ضئيلة تصدر عن جسديهما موسيقى ثملة، وكان شعرها تحت شفتيه ناعماً مفعماً برائحة النوم.

ورفعت وجهها إليه، فأحنى رأسه قليلاً، وتلاقى الفمان في قبلة طويلة. وطوّق عندئذٍ جسدها واحتضنها،

www.alkottob.com

فاستكانت ملتصقة به، وهدرت في عروقها أغنية حارة، ولم تمانع لحظة قادها نحو باب القبو. وانحدرا إلى القبو، وتمنت ألا يضيء المصباح الكهربائي، ولم يحاول الابتعاد عنها، وتمددا على السرير متلاصقين وجهاً لوجه، وانفرجت شفتاها قليلاً لتتيح لفمه التمسك بشفتها السفلى، ثم دفعت بلسانها إلى فمه. وفوجىء يوسف، وتلاشى بغتة، وحلّ محله بدوي مشعث الشعر، جلف.

ارتعد خائفاً إذ أدرك أن حديقة الياسمين سراب. واستيقظ غضب ممتزج بشبق ضار. وغمغمت سميرة بكلمات ما. وكان لسانها المتحرك في فمه يبعث في لحمه الحريق والخيبة والهلع. واجتاحته القسوة. وضحكت سميرة، وهمست بصوت مثقل بالنشوة والارتباك: «انتظر انتظر».

وبدا لها يوسف مخلوقاً غامضاً جديداً شرساً كل الشراسة. يداه تتشبثان بلحمها بفظاظة مؤلمة، فتأوهت وضحكت بارتباك، فتزايدت قسوة اليدين والفم، ففوجئت سميرة، واصطنعت مقاومة ضئيلة، اصطدمت في الحال بقسوة جامحة. واستولى عليها الخوف، وتمتمت: «اتركني اتركني».

فلم يفه بكلمة، فقاومت وقالت بصوت مرتفع قليلاً: «اتركني اتركني».

فأطبقت يداه على فمها وعنقها كأنهما تبغيان خنقها، فأحست أنها مشلولة، واستسلمت له دونما حركة،

www.alkottob.com

ووجدت نفسها تهمس بين الفينة والفينة بصوت خفيض: «ماما.. ماما».

وأفلتت من فمها صرخة ألم على الرغم من محاولة كبتها، وانتظرت واجمة منتشية ريثما انزاح ثقله عنها. تمدد بجوارها، وودّت لو يقول كلمة ما غير أنه ظل صامتاً، وهمست بعد قليل: «سأذهب».

وانسلّت من السرير، ووقفت لحظة كأنها تريد شيئاً ما، ثم سمعها تصعد درج القبو، وتغلق الباب خلفها بحذر ثم ساد السكون.

ورجع البدوي إلى حصانه الخشبي، فامتطى صهوته. وظل يوسف مستلقياً على سريره فارغ الرأس، وأحس بعد حين أن السقف واطىء وسيخنقه، فنهض وارتدى ثيابه وغادر القبو، وسار خاوي الرأس والقلب في الطرقات المقفرة الخاضعة لصمت ما بعد منتصف الليل.

وقف أمام فندق، كان اسمه ذا حروف كهربائية ملونة تنطفىء وتضيء برتابة، فصعد الدرج إلى الطابق الثالث حيث الفندق، وهناك استقبله رجل بدين ذو عينين جاحظتين يمتلكهما التعب والنعاس. واطّلع الرجل على هوية يوسف، ثم سجّل اسمه في دفتر كبير مفتوح، وتسلم منه أجر نومه سلفاً، وقاده إلى غرفة وسخة الجدران، تحوي سريراً حديدياً وخزانة خشبية لها مرآة كبيرة طويلة. ولم يحاول يوسف الوقوف أمامها، وأطفأ النور، وخلع ثيابه بعجلة ثم اضطجع على السرير مغطياً جسده باللحاف. ونام على الفور، ولكنه أفاق فيما بعد، وقد خيّل إليه أنه

www.alkottob.com

سمع نحيب امرأة. وكان حلقه جافاً، فشرب كوب ماء، ثم عاود النوم مجدداً.

وحين استيقظ في الصباح، أنبأته الشمس المتسللة إلى الغرفة أنه قد تأخر عن عمله، فقفز من السرير مذعوراً، وشرع يرتدي ملابسه، وتنبه فجأة إلى أن لا فائدة في خروجه، فخلع ثيابه، واستلقى على السرير، وغرق ثانية في النوم. أقبلت زوج أخيه فطمة. يداها صغيرتان حانيتان. يدا يوسف كبيرتان مات حلمهما بأن تزرعا بنفسجاً في حديقة بيت صغير. عينا فطمة ورد أسود. جسدها أبيض لم يبصره مرة عارياً تحت ضياء الشمس. الملائكة والشيطان في قبر. الديدان تأكل فتاة ميتة لا تقاوم. الملائكة طيور بيض، والشيطان زهرة سوداء. فطمة تقول: «لو نسافر».

«إلى أين؟».

«إلى آخر الدنيا؟».

«إلى آخر الدنيا؟».

«سأعطيك سبعة جياد».

«سبعة جياد فقط؟ الأرض كبيرة».

الأرض لها سقف واطىء وأربعة جدران صلدة، والجياد سجينة في غرف مقفلة، أرضها مغطاة بالتبن، منكسة الرؤوس، مكتئبة، لا تصهل، فبراريها اضمحلت وحلت محلها أبنية من اسمنت وحجر وحديد، وقد مات الرجال الذين كانوا يمتطون صهواتها ويلوّحون بشراسة بسيوف ذات نصال محدودبة. لا تحبي اللآلىء. الصيف عربة من

www.alkottob.com

شمع تحترق بعيداً عن الماء. الموسيقى عصفور مفقود. البحر حديقة زرقاء بلا أشجار، والقارب سمكة من خشب. أوراق الأشجار نجوم خضر. لا تخبي اللآلىء. سميرة تطأ الحرير واللآلىء. البدوي يشتغل في معمل محني الرأس. فطمة لا تضحك. أقفر القبر. لست صديق القمر والليل. أحبك. فطمة لا تضحك. عيناها يدا متسول. يداها تلمسان جبهة يوسف، فيتساقط مطر من ياسمين في دمه، وينتشله غرباء من بئر عميقة. أرسلتُ قميصي إلى أبي الأعمى.

يستيقظ يوسف في تلك اللحظة من نومه مبتهجاً، ويقفز من سريره، ويغسل وجهه، ويقف أمام المرآة، ويمشط شعره بعناية ثم يرتدي ثيابه ويغادر الفندق. وكان بانتظاره الاسفلت الرمادي والشمس وأبواق السيارات والرجال والنساء المتحركة أقدامهم بايقاع حائر بين السير البطيء والسير السريع وواجهات المحال الزجاجية وصفارة الشرطي الزاعقة بين الفينة والفينة وصيحات بائعي الصحف واليانصيب وجلبة عربات الترام.

ودلف يوسف إلى داخل أحد المطاعم، وأكل بشراهة، ثم عاد إلى الشوراع يمشي دون هدف، وأحس أنه وحيد على الرغم من الضوضاء والناس، ويستطيع بسهولة امتلاك العالم دون أن يبدل شيئاً من حركاته. كان حذاؤه يضرب الرصيف برتابة، وعيناه تحملقان ببلاهة وفضول إلى كل شيء يحتويه الشارع، وتخضعانه لسيطرتهما التي لا يقدر أحد على الفرار منها: يوسف يصفع وجوهاً، يلثم شفاها.

www.alkottob.com

وكاد يرتطم بخادم خارجة من حانوت جزار، تحمل ديكاً مذبوحاً، فتراجع خائفاً، وظل واقفاً يرقب الخادم بوجل حتى غابت عن بصره، ثم قادته قدماه إلى الأزقة.

وأحس وهو يمشي بين البيوت الطينية أنه يستنشق بعد مرض طويل هواءً حقيقياً ممتزجاً بضياء الشمس، وبدا الأمس مجرد حلم أسود بدَّده الصباح.

وبلغ يوسف بيت أهله القديم حيث ولد، ووقف أمام الباب الخشبي المهترىء، وضغط زر الجرس باصبع ترتجف، فتعالى فوراً صوت ممطوط متسائل: «من؟».

فتردّد يوسف لحظة ولكنه ما لبث أن أجاب بثقة: «أنا.. افتحوا».

وكانت الشمس تصعد إلى أعلى فأعلى تاركة الأفق الشرقي لتمتلك المدينة.

www.alkottob.com

النار والماء

www.alkottob.com

ابتسم فواز فخوراً وهو يقف أمام المرآة يمشط شعره بحركات متمهلة، فرمقه والده بنظرة هازئة تنبهت الأم لها، وسارعت تقول لفواز: «اخجل واترك المرآة للبنات».

قال فواز متسائلاً: «هل تريدين ان أمشي في الشارع ورأسي كالقنفذ؟!».

قالت الأم: «تابع تمشيط شعرك تابع. أنت دائماً تعرف كيف تخلص نفسك بلسانك».

قال الأب للأم: «اسمعي يا امرأة. في القديم كانت دوريات الشرطة تتجول ليلاً في الطرقات وتفتش الرجال فتعثر معهم على خناجر وسكاكين وقنابل.. أما الآن...».

وبتر كلامه بضحكة تعمَّد أن تكون ساخرة ثم أضاف قائلاً: «أما الآن إذا فتشت دوريات الشرطة شباب هذه الأيام فلن تعثر معهم إلاّ على مرايا وأمشاط».

قالت: «احمد الله يا أبا فواز لأن الشباب لا يحملون في جيوبهم علب البودرة والحمرة».

www.alkottob.com

قال فواز وهو ينحني ليربط شريط حذائه: «من يدري؟!».

قال الأب لفواز: «هل تعني يا أفندي أنك تحمل علبة بودرة وعلبة حمرة؟!».

لم يجب فواز إنما اتجه نحو باب الغرفة، فسألته الأم: «إلى أين؟».

أجاب فواز فوراً: «سأمشي قليلاً حتى أحرِّك دمي».

قال الأب: «عجِّل لعل الدم الجامد في رأسك يتحرك».

طغى على فواز حنق مفاجىء غير أنه لم يفه بكلمة، وغادر البيت بخطى مسرعة، وعندما أصبح في الحارة وقف هنيهة، وتلفت فيما حوله، فبدت لعينيه البيوت الترابية المتلاصقة بقايا هيكل عظمي لحيوان قديم منقرض، فاستأنف السير مشدود القامة سريع الخطى غير أن خطواته تباطأت لحظة اقترب من باب أحد البيوت، ورفع رأسه، وتطلع إلى أحد الشبابيك، فألفاه مغلقاً، فعاود السير السريع مبتعداً عن الحارة والأزقة الضيقة قاصداً الشوارع العريضة.

وتنهد بارتياح عندما بلغ الشارع الذي تتجمع فيه الباصات لتنطلق منه إلى شوارع المدينة المتعددة، وهناك وقف عند أحد مواقف الباصات، ونظر إلى ساعة معصمه، فإذا هي الثالثة إلاّ عشر دقائق، فراح يحوص بخطى متباطئة في مساحة صغيرة، ثم رمق بعد قليل ساعته مرة أخرى بينما كان يتصاعد من حوله صياح الباعة الذين صفّوا على أرضية الرصيف أمشاطاً وشفرات وجرائد وأقلاماً.

www.alkottob.com

واسترعى انتباهه رجل عجوز يجلس القرفصاء واجماً، وأمامه سلة ملأى بباقات البنفسج الأزرق والنرجس ذي اللونين الأبيض والأصفر.

وثبّت نظراته على البنفسج والنرجس، وقال لنفسه بكآبة: أبي أزرق. أمي بيضاء. أنا.. أنا أصفر أزرق أبيض.

وبلغ سمعه في تلك اللحظة صوت ناعم خافت: «فواز».

فالتفت ليبصر من ينتظرها تقف أمامه، فابتسم وجهه، وقال: «تأخرت يا إلهام».

قالت الهام متسائلة: «كم الساعة الآن؟».

ـ: «الثالثة وأربع دقائق».

ـ: «تأخرت إذن أربع دقائق».

ـ: «مرت عليَّ كأربع سنين وظننت أنك لن تأتي».

ـ: «تأخرت ريثما أقنعت أمي بأن تسمح لي بالذهاب وحدي إلى الخياطة».

قال فواز بلهجة مرحة: «إذن أنا خياطة».

وتأملها بشغف، وكانت جميلة رشيقة ذات جسد ناضج بدا تكوينه بديعاً على الرغم من الملاءة السوداء التي تغطيه، وكانت عيناها تبتسمان فرحتين من خلف الحجاب الأسود الرقيق المنسدل على وجهها.

أقبل باص، فصعدا إليه، وجلسا متجاورين. ودنا منهما

www.alkottob.com

قاطع التذاكر، فأعطاه فواز ثمن تذكرتين وهو يحس بالزهو.

قال فواز لإلهام بينما كان الباص ينساب من شارع إلى شارع: «كيف حالك؟».

قالت: «رأيتك وأنت تمشي في الحارة ونظرت إلى شباكنا».

ـ: «أين كنتِ؟».

ـ: «كنتُ طبعاً وراء الشباك».

مال بكتفيه قليلاً وضغط على كتفها بحركة حانية ودية، وظلا صامتين مبتهجين حتى صاح قاطع التذاكر: «آخر موقف».

عندئذٍ غادرا الباص. قالت الهام: «إلى أين نذهب؟».

قال فواز: «لو لم يكن بيتكم قريباً من بيتنا لأخذتك إلى البيت».

ـ: «ماذا ستقول أمك عندما تراني معك؟».

ـ: «ستزغرد طبعا».

ـ: «الزغردة في الأعراس».

ـ: «طبعاً. سيكون هناك عرس».

ـ: «عرس من؟».

ـ: «عرس ولد اسمه فواز».

ـ: «ومن العروس؟».

ـ: «العروس بنت اسمها الهام».

www.alkottob.com

ضحكت الهام بغبطة وحياء.

قال فواز: «سأطلب منك طلبا».

ـ: «اطلب».

ـ: «أريد ان أرى وجهك».

قالت: «انظر إليه. من يمنعك؟».

قال: «أريد أن أراه وهو بلا هذا الحائط الأسود».

وأشار بسبابته إلى الحجاب.

قالت الهام: «لا».

ـ: «أنت الآن بعيدة عن الحارة، ولا أحد هنا يعرفنا، فلماذا الخوف؟».

فرفعت الهام الحجاب عن وجه أبيض وعينين سوداوين، فهتف باعجاب ونشوة: «آه».

فقالت الهام متسائلة بمكر: «هل سمعت أغنية تحبها؟».

ـ: «أريد منك شيئاً آخر».

ـ: «أنت طماع».

ـ: «أريد أن أمسك يدك».

ـ: «سأصرخ حتى يأتي رجال الشرطة».

ـ: «اصرخي».

ـ: «سيأتي رجال الشرطة».

ـ: «فليأتوا. سأقول لهم: البنت خطيبتي ولا يحق لكم التدخل في الحياة الخاصة للمواطنين».

www.alkottob.com

-: «كلام لطيف».

-: «سيدركون خطأهم ويعتذرون وينسحبون خجلين».

-: «وحدك ستخجل وقت توضع رجلاك في الفلقة».

وأمسك بيدها، وقال: «أرحب بالفلقة. هيا اصرخي».

فحاولت ان تفلت يدها من يده، ولكنها فشلت، واضطرت إلى الاستسلام إذ قال لها: «عيب. الناس ينظرون إلينا».

وسارا معاً بخطى وئيدة في شارع عريض تنتصب على جانبيه أشجار خضر وبنايات فخمة.

قال فواز وهو يشير إلى إحدى البنايات: «أتعجبك؟».

قالت الهام: «إنها جميلة».

قال فواز: «لا تجاملي. إذا لم تعجبك فسأختار بناية ثانية.. انظري».

وأشار إلى بناية أخرى تحيط بها حديقة واسعة خضراء.

قالت إلهام وهي تتطلع فيما حولها بعينين مرحتين فضوليتين: «كل البنايات هنا جميلة. من يسكنها؟».

-: «يسكنها من يملك مالاً».

-: «إذن لن نسكن فيها».

-: «بل سنسكنها».

-: «كيف؟».

فكّر فواز هنيهة ثم قال بحماسة: «اسمعي.. سيأتي مرض غريب لن يصيب سوى الأغنياء. سيموت الأغنياء

www.alkottob.com

كلهم في يوم واحد ويدفنون في القبور ويتركون بيوتهم خالية، فيقبل الفقراء ويسكنون فيها، ونحن من هؤلاء الفقراء. ألسنا فقراء؟».

هزّت إلهام رأسها بالايجاب ثم قالت بعد حين: «فواز».

ـ: «ما بك؟».

ـ: «أنا أخاف من السكن في بيت مات فيه صاحبه».

ـ: «إذن مشكلتنا صعبة لا حل لها. انظري حولك. أيعجبك هذا الشارع؟».

ـ: «يعجبني كثيراً، إذا قورنت حارتنا به بدت كالمقبرة».

ـ: «إذن عندما نتزوج سنشتري خيمة وننصبها على الرصيف وننام فيها».

ـ: «وإذا جاء رجال الشرطة وقالوا: ممنوع؟».

ـ: «ننتقل إلى شارع آخر».

ـ: «وإذا طردنا منه؟».

ـ: «نعود إلى هذا الشارع».

ضحكت الهام. قال فواز: «اضحكي اضحكي».

كفّت الهام عن الضحك، وقالت: «ألا يعجبك ضحكي؟».

قال فواز: «إذا ظللت تضحكين فسينزل المطر».

قالت الهام: «إذن لن أضحك».

ـ: «لماذا؟».

www.alkottob.com

-: «إذا نزل المطر ابتلّت ثيابنا».

ضحك فواز. ضحكت الهام. وفجأة تنبها إلى ان ضحكهما امتزج بضحكات ساخرة تعالت من خلفهما، فأدارا رأسيهما ليباغتا برؤية أربع فتيات جميلات أنيقات يرتدين ثياباً قصيرة، ونظراتهن خبيثة ساخرة.

قالت إحدى الفتيات لرفيقاتها: «أعجبتني الملاءة. غداً سألبس واحدة مثلها».

قالت فتاة أخرى: «البسيها وتعالي خوّفي اخوتي الصغار، فهم كالعفاريت».

تماسكت يدا فواز والهام بقوة، وسارا بخطى سريعة.

ضحكت فتاة، وقالت: «انهما يهربان».

قالت فتاة ثانية: «نحن أيضاً نستطيع المشي بسرعة».

«المشي رياضة نافعة».

«انه يمسك يدها».

«عيب».

«أخلاق فاسدة».

«قد تكون زوجته».

«لن يمسك يدها في الطريق لو كانت زوجته».

«إذن ماذا سيمسك؟».

«قليلة الحياء».

«لا بد انها خطيبته».

www.alkottob.com

«لماذا لا تكون حبيبته؟».

«قيس وليلى».

وصاحت إحدى الفتيات بصوت آمر: «سكوت.. أنا الآن مذيعة وسأصف للمستمعين ما أشاهد».

وسعلت الفتاة سعلات قصيرة مصطنعة ثم قالت بلهجة وقور: «آنساتي سيداتي سادتي... أنا أمشي الآن وراء ولد وبنت. الولد يلبس بنطلوناً عتيقاً. وأؤكد لكم أن البنطلون يخلو من أي رقعة. انه يلبس أيضاً قميصاً لم يعرف يوماً المكواة. يا لها من مفاجأة سارة! في قدمي الولد حذاء. خسىء من زعم أن الفقراء في بلدنا حفاة عراة. أما البنت فلا أستطيع وصفها لضيق الوقت. إنها باختصار فولكلور يمشي. أين السياح أين؟؟».

فتعالت ضحكات الفتيات بينما انفجر غضب فواز، فكفّ عن السير واستدار ووقف منفرج القدمين، وواجه الفتيات الأربع بعينين حانقتين متحديتين، فلم ترتبك الفتيات إنما نظرن إليه وإلى الهام باحتقار، وابتعدن عنهما وهن يسرن الهوينا ويتضاحكن تاركات خلفهن احتقارهن مخلوقاً فظاً لا يموت.

عندئذٍ انشقّت الأرض وابتلع جوفها فواز والهام، ولم يبق على سطحها سوى المباني الفخمة وسكانها.

www.alkottob.com

العائلة

www.alkottob.com

www.alkottob.com

[redacted]

لما بلغ عبد اللّه بيته، تنهد بارتياح، وبحث في جيوبه عن المفتاح، فلم يعثر عليه، فدق بقبضته خشب الباب العتيق بينما كان ظهره يزداد تقوساً، ثم انتظر مرتعش الساقين واليدين حتى فتحت الباب امرأة في مقتبل العمر، جميلة، بيضاء، شعرها أسود، وعيناها خضراوان، فحدق إليها عبد الله مدهوشاً، فقالت له: «ما بالك واقفاً؟ لماذا لا تدخل؟».

فاقتنع عبد اللّه أنه قد أخطأ وقرع باب بيت آخر، وقال متسائلاً بارتباك: «أين عائشة؟».

فضحكت المرأة، وقالت: «ما بك؟ ألم تعرفني؟ أنا عائشة.. عائشة زوجتك».

قال عبد الله باستغراب: «أأنت عائشة؟».

قالت المرأة: «طبعاً أنا عائشة.. وإذا لم أكن عائشة، فمن أكون؟».

قال عبد الله: «ولكن عائشة امرأة عجوز».

قالت المرأة: «صدق من قال إن المرء يخرف عندما

www.alkottob.com

قالت المرأة: «صدق من قال إن المرء يخرف عندما يكبر. اسمع يا رجل. هل فقدت عقلك؟ انظر إليَّ. أأنا بنت صغيرة؟ انظر. ها هو شعري يخلو من شعرة واحدة سوداء. ادخل ادخل، وكفّ عن الثرثرة».

فدلف عبد الله إلى داخل البيت بخطى مضطربة وئيدة تواقاً إلى فراشه، ولكنه تجمد في باحة البيت إذ سمع صراخاً حاداً ينبعث من إحدى الغرف، ثم فتح باب، وخرجت منه فتاة مشعثة الشعر، لاهثة، وركضت هاربة من شاب يطاردها وهو يحمل فأساً يلوّح بها ويصيح: «اعطني طابتي».

فصاح عبد الله: «ما هذا؟ اخجلا.. أتتشاجران من أجل طابة كأنكما طفلان صغيران؟».

فلم يأبها لما قال، وانقضّ الشاب على الفتاة، وأهوى بفأسه على رأسها، فشقه قسمين، فصرخ عبد الله مرتاعاً: «ماذا فعلت؟ قتلت أختك».

قال الشاب: «سرقت طابتي».

فقعد عبد الله على الأرض بجوار الفتاة، وانتحب وهو يردد: «آخ يا بنيتي.. آخ يا بنيتي».

وفجأة أطلقت الفتاة ضحكة طويلة ساخرة، فقال لها عبد الله: «إذن لم تموتي. لماذا تضحكين؟».

فقالت الفتاة: «انظر إلى المرآة. أنت تبكي، فتختلط دموعك بمخاطك».

فنظر عبد الله إلى أعلى، فإذا السماء غيمة رمادية اللون

www.alkottob.com

مضيئة، فأغمض عينيه، وأسند ظهره إلى الحائط، وسمع أصواتاً تهمس: «مات فأراح واستراح».

وسمع ابنه يقول: «لم يترك لنا سوى الديون».

وسمع ابنته تقول: «ماذا نفعل الآن؟».

وسمع زوجته تقول: «يجب ان نسرع في دفنه».

وسمع ابنه يقول: «سأحفر قبراً».

وسمع بعد قليل معولاً يضرب بقوة وإصرار أرض باحة البيت، فانتحب دونما صوت.

ولما حمل وسجي في قاع حفرة، لم يحاول الاستغاثة إنما استسلم للتراب الذي انهال فوقه كثيفاً ثقيلاً مظلماً.

www.alkottob.com

حقل
البنفسج

www.alkottob.com

www.alkottob.com

[redacted]

عاش محمد أعواماً مديدة في مدينة صغيرة، تقبع بذل عند أقدام جبل شاهق، ترتطم السحب بصخوره الصفر. وكانت سماء المدينة سوداء لا تملك قمراً وشمساً ونجوماً.

واستطاع محمد ذات يوم أن يتخيل امرأة تقف محنية الظهر في حقل بنفسج مبلل بالمطر، وتنتحب بانكسار بينما يلتمع فوقها قمر شاحب.

وبعد أيام قليلة، أبصر المرأة نفسها تمشي واجمة مكتئبة في أحد الشوارع، فلحقها كالمسحور، وتمكن من معرفة مكان منزلها، ثم أخذ فيما بعد يحوم حوله باستمرار وكله شوق إلى رؤيتها.

وكان منظرها يدهشه ويذهله فكأنها غريبة تماماً عن الأرض والناس، وقد جاءت من عالم غامض ناء، وهي تعبِّر عن عزلتها وغربتها بخطواتها ووجهها الجميل وعينيها الساهمتين.

وأصبحت أمنية محمد أن تنظر إليه المرأة وتبتسم له،

www.alkottob.com

www.alkottob.com

ولكن المرأة لم ترمقه بنظرة في أيّ مرة، فكان محمد يشعر بأنه جورب عتيق مهمل، فيتشرد عبر المدينة وقد تحول قطاً هزيلاً يموء مواءً حاداً.

وتفاقمت أحزانه، وبدأت تسحقه ببطء وتشفٍّ، فنصحه صديق له بالذهاب إلى ساحر اشتهر بمقدرته الخارقة.

وكان الساحر رجلاً ليس فتياً ولا هرماً، ولقد قال لمحمد: «أستطيع الليلة إذا أردت ان أحضرها إليك وهي نائمة في سريرها».

فقال محمد بيأس: «أريد ان تكون عيناها مفتوحتين، تنظران إليَّ بودّ. أريدها ان تبتسم لي».

فلم تنطلق الضحكة الخبيثة الساخرة من فم الساحر إنما تغلغلت في جلد وجهه المتجعد، وظل فترة لائذاً بالصمت، ثم قال: «هل تريد أن أحضرها إليك وهي نائمة في سريرها؟».

فتركه محمد لأنه لم يكن يبغي الظفر بجثة امرأة ساخنة، ومشى عبر الطرقات دون هدف. وكانت الأشجار ذات الأغصان العارية تنتصب حوله كنساء هرمات. وقادته خطواته إلى مسجد كبير، وكان يجلس في داخله شيخ له لحية بيضاء، تحلَّق حوله عدد من الرجال. وكان الشيخ يتكلم عن الله والشيطان: «الله هو خالق كل الأشياء، وجميع المخلوقات لا تفعل شيئاً إلاّ بأمره».

www.alkottob.com

فقال محمد لنفسه: إذن يستطيع الله مساعدتي على تحقيق أمنيتي».

وقال الشيخ: «ابليس عدو البشر.. انه الشر».

وغادر محمد المسجد بينما كانت دماء شراايينه أصواتاً تتوسل بلهفة، وتهتف ضارعة: يا الله.

وافترست محمد خيبة فظة حين شاهد المرأة مرة أخرى، فألفاها لا تزال تسير شاردة دون ابتسامة، ولا ترمق أحداً، فرجع إلى غرفته وهو يقول لنفسه: صمتها شر.

وعندما أصبح داخل غرفته نادى الشيطان بمرارة، وسمع بعد قليل هدير محرك سيارة، فاقترب من النافذة المطلة على الشارع، فشاهد سيارة فخمة سوداء تقف بمحاذاة الرصيف. وعاودته نقمة قديمة على الناس الذين لا يملكون أياماً بائسة، وتراجع مكتئباً، وجلس على مقعد خشبي. وما لبث أن فتح باب غرفته على حين غرة، ودلف إلى الداخل رجل جذاب الوجه، أنيق الملابس، فنهض محمد وقد استولى عليه الاضطراب، ولم يقل الرجل المجهول أيّ كلمة، وبقي واقفاً دون حركة، فسأله محمد بصوت مرتعش: «ماذا تريد؟».

فابتسم الرجل، وقال: «أنت ناديتني. هل أخطأت العنوان؟».

وقهقه الرجل الغامض ثم أضاف بمرح: «هل أدهشتك؟».

www.alkottob.com

واتجه نحو السرير، وقعد على طرفه، ثم قال متسائلاً: «ماذا تريد مني؟».

فقال محمد: «هناك امرأة أريد...».

فقاطعه ابليس قائلاً بمكر: «إذن هي مسألة امرأة؟!».

وأخذ يتأمل محمداً بنظرات متفحصة، ثم قال له: «أنت لست جميلاً. أنت لا تجيد التحدث».

وأجال نظرة سريعة فيما حوله، وقال: «وأنت بالطبع لست غنياً. أليس عجيباً أن تطلب حب امرأة؟».

فقال محمد بحرارة: «أريد ان تبتسم لي فقط».

وشعر محمد في تلك اللحظة أنه ضال في غابات مفعمة بالضباب. وكان يحس على الدوام أن في دمه أطفالاً، صرخاتهم مخنوقة، ولقد انتظر طويلاً أن تبزغ فوق صحرائه أنثى تهبه الشمس والعطر والنشوة والطمأنينة. سيتأبط ذراعها ويسيران معاً بخطى متمهلة عبر الشوارع مستنشقين شذى ليالي الصيف، وسيتداني رأساهما تحت المظلة لحظة ينهمر المطر، وسيذهبان أحياناً إلى دور السينما ويجلسان في الظلام متلاصقين كقطين أليفين. وعندما سيسمع ضحكتها سيتمنى لو يذبح على ركبتيها ويهرق دمه على لحمها الأبيض الناعم، وستكون فتاة عثرت ذا صباح على عصفور صغيرة، هزمه مطر الليل وصقيعه وألقاه على أرضية باحة البيت. ستحتضن يداها العصفور، وتمنحانه الدفء والحنان، وتطعمانه لباب الخبز بكثير من الود. وسيحبها العصفور ولن ينساها حين تطلق سراحه

www.alkottob.com

ليرفرف بجناحيه عبر الفضاء الفسيح، وسيظل يزورها كل يوم ويحوم مزقزقاً قرب نافذتها.

وتنهد ابليس، وقال بصوت كئيب: «أنا عاشق أيضاً. تخيلت مرة امرأة تقف في حقل بنفسج مبتل بالمطر، وتنتحب وفوقها يتلألأ قمر أبيض، وشاهدت المرأة نفسها بعد أيام تطل من شباك منزل، ولم أستطع دفعها إلى أن تقول لي كلمة واحدة».

واكتسى وجه ابليس بقناع أسيان. وقال محمد لنفسه: هل يسخر مني؟

وتمطى ابليس، وتثاءب بصوت مسموع، وقال وهو يستلقي على السرير: «أنا متعب جداً.. عملي كثير.. وابني الصغير ظل يبكي طوال الليل ولم يتركني أنام لحظة».

فسأل محمد بتردد: «لك أولاد؟».

ـ: «أنا متزوج منذ ثلاث سنوات.. أف.. شيء متعب أن تكون مسؤولاً عن عائلة.. أولاد.. زوجة.. بابا نريد ثياباً.. بابا نريد كتباً.. بابا خذنا إلى السينما.. بابا ضربنا أولاد الجيران.. وأمهم تنظر إلى محفظة النقود وتمدّ يدها قائلة: هات. شيء متعب أن يكون الانسان حياً أو ميتاً».

وصمت ابليس، ولم يمض سوى وقت قصير حتى غرق في النوم.

ووقف محمد قرب السرير، يتأمل الوجه الوسيم المتعب، وامتلأت نفسه بحنو بالغ، فأمسك غطاء صوفياً سميكاً، ورماه فوق جسد الرجل النائم.

www.alkottob.com

وأخذ محمد يتجول في جنبات الغرفة محاذراً أن يحدث أي جلبة، وتخيّل فجأة جبل مدينته الشامخ.. محمد سيتسلقه.. سيبلغ ذروته التي لم تطأها قدم انسان.. سيستنشق هواء القمة.. وهناك سيطلّ من أعلى.. وستكون مدينته مستسلمة لنظرته المفترسة.. ستكون عندئذٍ كدمية مهشمة.

واجتاحت محمد غبطة عارمة، ولكنه تساءل: ثم ماذا سأفعل؟

وأدرك أنه لا بد له من ترك قمته والانحدار باحثاً عن شيء ما. وتهاوى محمد على المقعد بينما كانت مخيّلته تستعيد حقل البنفسج وامرأته الجميلة الباكية المحنية الظهر، وتناهى إلى مسمعه صرير فرامل سيارة في الشارع، أعقبته ضجة، فهرع نحو النافذة، فإذا إحدى السيارات قد دعست رجلاً، وحطمت جمجمته تحت عجلاتها. وبعد هنيهات جاءت سيارة الاسعاف، فحملت الجسد المدمى تاركة عظام الجمجمة المتفتتة للزّبال الذي جمعها بمكنسته وألقاها في صندوقه الحديدي بحركة متعبة غاضبة.

وابتعد محمد عن النافذة وقد ازداد ظهره تقوساً، وظلت سماء المدينة خارج الغرفة سوداء بلا ضوء.

www.alkottob.com

رحيل
إلى البحر

www.alkottob.com

www.alkottob.com

[redacted]

- ١ -

في يوم من الأيام، قلت لأمي: «سأسافر».

فلم تترقرق الدموع في عينيها، ولم يكتس وجهها بأيّ كآبة إنما قالت متسائلة بفتور: «هل سترجع غنياً؟».

وعندما أتى أبي في المساء، رمقني بنظرة حادة ثم سألني: «ماذا تقرأ؟».

فقلت فوراً: «القرآن الكريم طبعاً».

بدا الرضا على وجهه، وقال: «هيا اقرأ سورة التوبة».

فاندفعت أقرأ بسرعة: «اقتحم أرسين لوبين الغرفة شاهراً مسدسه الضخم وصاح: ارفعوا أيديكم».

فضحكت أمي بينما صرخ أبي بحنق: «اخرس».

وتابعت القراءة بحماسة: «تراجع اللصوص إلى الخلف مذعورين بينما كان لوبين يطلق ضحكة باردة هازئة».

فاختطف أبي الكتاب من يدي، ورماه إلى العتبة حيث الأحذية والقباقيب الخشبية، وقال: «سيعذبك الله».

www.alkottob.com

فاستولى عليَّ حزن قاهر، وقلت لنفسي: فليعذبني الله حتى أموت.

وفي الصباح، غادرت البيت حاملاً زادي، وطفقت أمشي بخطى مسرعة حتى ابتعدت عن المدينة، وبلغت الحقول الشاسعة، وهناك لم أستطع أن أهرب أو اختبىء لحظة أقبلت خيول سود يمتطي صهوتها رجال سمر الوجوه، عباءاتهم سود، مطرزة بخيوط ذهبية، وتلتفُّ حول خصورهم شالات من حرير قرمزي، ويحملون في أيديهم سيوفاً محدودبة النصال، وقد أحاطوا بي، فدب الذعر إلى قلبي غير أني تصنعت الشجاعة، وقلت لهم متسائلاً بصوت مرتفع: «هل البحر بعيد؟».

فهتف أحد الرجال، ولعله أميرهم: «اسكت. صرت الآن عبدنا».

فكدت أبكي، وقلت: «أريد أن أرجع غنياً إلى مدينتي».

ـ: «لن ترجع إلى مدينتك إلاّ إذا كنت تريد أن تموت».

ـ: «لا أريد أن أموت لئلا تبكي أمي».

ـ: «لن تبكي أمك».

ـ: «أبي رجل هرم وسيموت حزيناً».

ـ: «أبوك سيموت حزيناً».

واقتادني الرجال إلى صحراء تناثرت في أرجائها الخيام الصفر، فأبعدتُ عن خضرة الحقول والأشجار، وأمسيت

www.alkottob.com

عبداً: أطهو الطعام. أغسل الثياب والصحون. أقدم فناجين القهوة. أنحني بمذلة.

وكنت أشتغل باستمرار ولا أنام سوى ساعات قليلة، فقابلت الأمير، وقلت له بلهجة حانقة: «سأشتغل ثماني ساعات فقط في اليوم كما يأمر القانون».

فقطب الأمير جبينه، وقال بصوت صارم: «سأدفنك حياً في الرمال إذا تجرأت على الكلام مرة أخرى».

وكان رجال القبيلة يملكون نساء كثيرات مختطفات من مدن نائية، وكانت سعدى إحداهن، امرأة غامضة عذبة، تغني عندما تكتئب بصوت مثقل بأشجان لا تموت. وكنت أنصت لغنائها وأنا أرتجف وأحس بأني ما زلت طفلاً لم يبتعد هنيهة عن ثدي أمه، وكنت أنتحب بمرارة كأن البشر جميعاً صعدوا قمة ما وتركوني خلفهم رجلاً وحيداً مشلولاً سقط في أكثر الأودية انخفاضاً.

أحببت سعدى بضراوة. واقتحمت خيمتها ذا ليلة ذئباً يتضوَّر جوعاً. وحين خبت النار في دمي ولم يبق منها سوى حفنة رماد، أغمضت عيني وتلألأت النجوم فوق مدن الأرض طيوراً من فضة. وعندئذٍ سمعت سعدى تهمس بضراعة: «خذني إلى البحر».

أين البحر؟ البحر بعيد، والقمر أصفر هزيل مشوه الوجه مثبت فوق صحارى من رمل وقماش ولحم ساخن، ولقد رجعت السنونوات إلى البستان وبكت لما وجدت أعشاشها القديمة متهدمة.

www.alkottob.com

أين البحر... الحقل الأزرق العاري؟

قلت لسعدى: «سآخذك إلى الجبال».

فاتنة هي الجبال. سنتسلق الجبال ونلعب مع الغيوم. سنمتلك وحدنا القمة وستكون مدن العالم تحت أقدامنا كالجواري الخائفات.

ـ: «خذني إلى البحر».

ربما جفَّت البحار، وقد تكون المياه المالحة سئمت السجن في الحفر الضخمة فهربت وتحولت غيوماً بيضاء متشردة عبر الفضاء الأزرق.

ـ: «خذني إلى البحر».

امتدّت يداي إلى جسد سعدى الناضج.. جسد امتلكه رجال كثيرون. وشعرت بغتة بكراهية مدمرة تجتاح كياني. وكانت تربض في جيبي مدية باردة، فانتضيتها وضغطت قليلاً بحدها على حنجرة سعدى. وكان يجب ان ترتاع وتلوذ بالسكينة غير أنها تطلعت إليَّ متحدية بعينيها المبللتين بالدموع، فذبحتها بتلك المدية الصدئة المثلومة الحد، ثم تسللت خارجاً من خيمتها، وامتطيت جواداً سرقته. هيا هيا اهرب، فركض الجواد كأنه الريح الشرسة، وحملني بعيداً عن الخيام ورجالها القساة ونباح كلابها.

وغمرني الفرح عندما لاحت لعيني أنوار مدينة قريبة، فقد كنت متعباً، وترجلت عن الجواد، وتمددت على عشب الأرض. وحينئذٍ تذكرت سعدى، فألصقت وجهي بالتراب، وبكيت. لماذا قتلت سعدى؟ أحبها وأريد أن

www.alkottob.com

تعود إلى الحياة. أحبها. وبكى التراب معي وقال: «وجهك متعب».

«وجهي أعوام تبددت».

«أنا أحب الغيوم».

«وأنا أحب البحر».

«مات القمر. غرق في بحر مالح المياه».

«لن أبكي من أجله. انه كتلة من الحجر الصلد الأبيض».

«القمر أمير جميل الوجه».

فلم أجب، وغرقت في سبات عميق.

وأيقظني في الصباح عصفور صغير ينطنط حولي ويهتف: «حسن حسن حسن».

فقلت له: «أين البحر؟».

قال بوداعة: «لا أعرف، فأنا صغير، وأجنحتي حملتني إلى ثلاث أشجار فقط. اسأل أمي».

فسألت أمه الجاثمة على غصن شجرة: «أين البحر؟».

ـ: «أنا لا أعرف البحر، والعصافير الهرمة تتحدث وحدها عن البحر وعن طيوره البيض».

فقلت متسائلاً بلهفة: «وأين العصافير الهرمة؟».

قالت بصوت حزين: «ماتت العصافير الهرمة».

فسارعت إلى امتطاء الجواد، واتجهت نحو المدينة القريبة، وهناك بعت الجواد في سوق من أسواقها، واشتريت

www.alkottob.com

طعاماً أكلته بنهم، ثم أخذت أمشي وأصوات الفرح تتردد في أعماقي.

واسترعى انتباهي طفل وسيم الوجه يقف عند الباص ويده تمسك بطرف ثوب أمه. ابتسمت له بود غير أن وجهه ظل ميتاً.

وتسمرت طويلاً أمام واجهة أحد المحالّ، وكان هناك سرير صغير، فقلت لنفسي: هذا سرير طفل.

وراقبت السرير بحنان بينما كانت تتساقط في دمي حسرة همجية، وشعرت أني سأهلك ببطء إذا لم أظفر ببيت وزوجة وطفل يناديني حين أعود من عملي في المساء: بابا.. بابا... وتذكرت فتاة توهمت أنها تصلح لأن تكون زوجة لي، ولكنها قالت لي: «أنت لا تصلح للحياة الزوجية. أنت متقلب الطباع. تقضي أوقاتك في الخمارات والمقاهي والشوارع ولا تهتم بملابسك».

وقلت لها آنذاك: «أنا أنيق جداً وأخلاقي مهذبة جداً وأصلح جداً للحياة الزوجية وكل أوقات فراغي أقضيها في المساجد».

وكنت أتمنى لو أقول لها: «أنت سطحية وغبية وتافهة ويعجبني ردفاك الضخمان فقط».

وعدت إلى المسير ثم وقفت بعد قليل قدّام مكتبة كبيرة، وتأملت الكتب المعروضة خلف زجاج الواجهة، وقلت لنفسي: سأقرأ كل الكتب. سأعبىء في جمجمتي كل ما أفرزته عقول البشر.

www.alkottob.com

ودلفت إلى داخل المكتبة، وسألت صاحبها الكهل: «ما الفائدة في الكتب؟».

ـ: «إنها للتسلية».

ـ: «النوم مع امرأة مجلب للتسلية أكثر».

ـ: «الكتب تمنح الحقيقة؟».

ـ: «ما هي الحقيقة؟».

ـ: «أن تعرف كيف تتجشأ».

ـ: «أمي لم تقرأ كتباً، ولكنها تتقن التجشؤ».

ـ: «أنت تضيع وقتي».

ـ: «أنا بلا بحر».

وتركته، وخرجت من المكتبة عائداً إلى الشارع، فوجدت فتى منحنياً على الأرض، يفتش عن شيء ما، فسألته: «ماذا تفعل؟».

قال: «أنا ولد صغير».

فسألته مرة ثانية: «ماذا تفعل؟».

ـ: «أبحث عن قطعة من الحجر الكلسي، وسأرسم بها على الأرض زورقاً ثم أركبه وسينطلق بي نحو البحر».

ـ: «خذني معك».

ـ: «الزورق صغير، ويتسع لشخص واحد فقط صغير مثلي».

فتابعت مسيري حتى بلغت ساحة ازدحم فيها رجال ونساء، وقفوا جميعاً متجمدين في أمكنتهم كأنهم نحتوا

www.alkottob.com

من حجر. وكانوا رافعين وجوههم الصفر إلى أعلى، فاغرين أفواههم ببلاهة. سألت أحدهم: «لماذا تقفون هكذا؟».

«نحن جياع، وننتظر أن تمطر السماء خبزاً».

وما إن سرت بضع خطى حتى سمعت موسيقى شبيهة باستغاثة نائية، ثم ما لبثت الموسيقى أن اشتدت وانبعث من حناياها صراخ شهوة تبحث عن رجل ما فظ حار، ولم أستطع الصمود والمقاومة طويلاً، وخضعت سريعاً للموسيقى، وتبعتها إلى قاعة فسيحة، سقفها ضوء أبيض، شديد السطوع. ولم أكد أجيل أنظاري حتى عزف لحن راقص لبى إغراءه نساء ورجال كثيرون، فاتجهت نحو امرأة تجلس على مقعد من ذهب، وقلت لها: «أنت أجمل امرأة ولدت، قمر صحراء بلا ماء».

فقاطعتني المرأة قائلة: «أنا ملكة المدينة».

ـ: «أنا قنفذ».

ـ: «أنت طفل بائس».

ـ: «أنا رجل وحيد».

فضحكت المرأة ضحكة باردة ذات رنين أجوف، وقالت: «أنت بلا بحر».

فتهاوى رأسي على صدري. قطار كثيرة عرباته أطلق صفيره الطويل الشبيه بأغنية يأس. الأرض صلبة، والحدائق بلا نهر، والنهار لا يملك نجوماً. أين البنفسج الحالم بنهدين هاربين من حريق شمس؟ لن ينبت البنفسج في الحدائق.

www.alkottob.com

رائحة العشب الذاوي يأس التراب. الحقول ميتة السنابل. فم الميت بلا مدية. قوارب سود في الشرايين. العصافير مذبوحة، وشجرة الرمان معذبة الفم تنتظر مقدم رجل يهرق دمه في ترابها العطشان. أنا أحب القطارات وخصلة الشعر الناعمة على جبهة الفأس الملطخة بدم الأشجار. أقبل رجال ونساء وتعانقوا بغبطة. الأشجار العارية تنمو في أغصانها الأوراق.

يا سيوفاً باردة اشرقي على الأرض الحزينة الوجه. جثوت على ركبتي. يا سيدي يا سيدي. أعط دمي ضحكة طفل. أعطني بحراً.

ورفعت رأسي، فإذا بالقاعة قد تلاشت وبقيت وحيداً في شارع طويل، وتخيلت رمالاً صفر وصخوراً مبتلة وقوارب ذات أشرعة بيض وبواخر ضخمة مداخنها تنفث دخاناً كثيفاً، وسمعت صوت الموج المترجرج.

وفجأة أقبل نحوي رجال دون رؤوس صائحين: «هذا قاتل الله».

وجرّوني إلى بناية بدت لعيني بأحجارها الصفر المنتصبة عبر الفراغ الرمادي حربة ضخمة توشك أن تثب لتطعن وجه السماء. وتزايد رعبي حين أدخلت إلى غرفة تناثرت في أرجائها بضعة كراسي ومنضدتان من خشب، قبع خلف احداهما رجل طويل القامة، عريض الكتفين، له وجه وسيم، وقد قال لي على الفور: «من أنت؟».

فقلت بصوت حاولت جهدي ألا يكون مرتجفاً: «أنا لم أرتكب جرماً».

www.alkottob.com

ـ: «لا تكذب. اعترف بأنك قتلت الله».

فقلت بصوت متهدج: «لم أقتل أحداً».

فقال المحقق: «اسمع. أنا لا أريد أن أكون قاسياً معك فأنت شديد الشبه بأخي. مسكين أخي الصغير، تشاجرت معه يوماً فخرج إلى الشارع غاضباً فدعسته سيارة. مسكين أخي. هيا تكلم. سأسلخ جلدك إذا لم تتكلم».

قلت بحرارة: «أنا بريء. أنا بريء».

فهز المحقق رأسه عدة مرات، وضغط باصبعه على زر جرس، ولذت بالصمت بينما كان العالم يبدو لي مشتتاً ممزقاً، وعرفت في تلك اللحظة احساس الجرذ الذي يقع في مصيدة. ودخل إلى الغرفة ثلاثة رجال، فقال لهم المحقق: «هذا ضيفنا. سنرحب به كالعادة».

فتصايح الرجال: «اخلع حذاءك.. وجواربك أيضاً».

فأطعت في الحال. وحُشرت قدماي بين حزام البندقية الجلدي وخشبها الصلد، وانهالت عصا مرنة رفيعة على باطن قدمي بينما جثم فوقي رجلان. وحاولت خنق صراخي المتوجع بأن أضغط بأسناني على شفتي السفلى.

يصيح المحقق: «اضربوا. انه لا يتألم».

تشتد الضربات. أصرخ. أحاول الافلات والمحقق يصيح: «تكلم. أنت قتلت الله. قل من دفعك إلى قتله».

كسرت أول عصا. استبدلت بأخرى. اللهيب في دمي يأكل لحمي. يا ربي أين أنت؟

«تكلم تكلم تكلم».

www.alkottob.com

وانتهى الضرب بعد حين، وأمرني المحقق بالنهوض، قال لي وهو يشير إلى سطل ماء: «أغمس قدميك. والآن هيا امش».

ومشيت ببطء محاولاً أن تكون خطواتي ثابتة، وكنت أشعر بمهانة فكأن رجالاً يضاجعون أختي وأنا موثق بحبال غليظة وملقى بقربها.

وصرخ المحقق بغيظ: «لم يفدك الضرب. تكلم. قل من أمرك بقتل اللّه».

أنا بريء. لم أقتل. أنت تكذب. أنا صادق.

وانهمرت الصفعات واللكمات على وجهي وبطني وصدري، ولم أعد أبصر سوى ضوء أزرق يسطع خاطفاً أمام عيني. تمزقت شفتي، وسال الدم منها ومن أنفي أيضاً. تورمت عيني. دهمني ألم صاعق كأن عظام صدري تحطمت كلها. وصرخ المحقق: «خذوه».

واقتادني الرجال إلى قبو، وهناك سرت في دهليز ضيق معتم، ينيره مصباح كهربائي ضئيل النور، وعلى الجانبين أبواب حديدية، فتح أحدها، ودفعت إلى زنزانة صغيرة، مصباحها الكهربائي متدل من سلك مثبت في السقف. وكان ثمة سجين واحد مستلقياً على ظهره، وما إن شاهدني حتى هبّ واقفاً بينما سارعت إلى التمدد على كيس محشو بالقش.

قال السجين: «أنت ضيف جديد».

www.alkottob.com

فتأوهت متألماً. أضاف السجين متسائلاً: «هل عذبوك؟ ألم تتكلم؟ ما جريمتك؟».

ـ: «لم أرتكب جرماً».

ـ: «كل الذين يأتون إلى هنا يتكلمون مثلك في البداية ثم يعترفون بعد تعذيب قليل: ضرب بالعصي.. قلع أظفار.. كهرباء.. كسر عظام».

ـ: «اسكت».

ـ: «أنت ضيفي، ولا بد أنك ستتركني بعد مدة. أنا سجين منذ سنين. أوف. نسيت أسماء الشهور والأيام، وسأنسى الكلمات أيضاً إذا لم أتكلم باستمرار. سرقت بضعة ألواح من الصفيح. حقق معي مرة واحدة ثم أهملت. عملي هنا أن أنظف الغرف. كنت مرة جالساً القرفصاء أمسح البلاط فشممت رائحة لحم مشوي. شتمت أمي وأبي وجدي وجدتي، فقد كنت جائعاً للغاية، وعرفت فيما بعد أن الشاب كان مثلك عنيداً لم يتكلم فأجبروه على القعود على قطعة من الصفيح المحمى إلى درجة الاحمرار فاحترقت إليتاه العاريتان. أنا أحب اللحم. هل تحب اللحم المشوي؟».

فدمدمت: «اخرس».

ولعقت بلساني دم شفتي المجروحة، وتناهى إلى مسمعي صوت ارتطام حذاء ثقيل بأرضية الدهليز. ودار بعد هنيهة مفتاح في ثقب قفل الباب، فسارع السجين إلى الاستلقاء وتصنّع النوم العميق. وانفتح الباب محدثاً صريراً حاداً.

www.alkottob.com

«انهض».

وتبعت الحارس إلى غرفة المحقق الذي استقبلني على الفور قائلاً: «اجلس هنا».

وأشار بيده إلى مقعد خشبي قريب منه، وتابع قائلاً: «أتعبتني. يجب أن تتكلم».

-: «أنا بريء. لم أرتكب أي ذنب».

-: «لا يوجد انسان دون ذنب. لا تجبرني على تعذيبك. وجهك كوجه أخي. مسكين أخي. لا أريد أن أعذبه. تكلم. رئيسي مهتم بقضيتك وسألقى متاعب كثيرة إذا لم أنجح معك. تكلم».

-: «أنا بريء».

-: «سأطرد من عملي إذا لم أجبرك على الاعتراف. أنا متزوج من امرأة أحبها، ولي طفل لطيف جداً، وستحبه إذا رأيته. هل تريد أن تجوع زوجتي وطفلي؟».

-: «لا أريد أن يجوع أحد».

-: «إذن تكلم. تخلص من العذاب. قل انك قتلت اللّه. اذكر اسم محرضك على قتله».

-: «أنا بريء».

-: «اسمع نصيحتي. سيتعبك فمك المقفل. جميع الذين يسقطون هنا يحبون أن يمثلوا أدوار الأبطال، ولكنهم بعد أيام ينهارون ويعترفون بأكثر مما يطلب منهم. تكلم».

-: «أنا بريء».

www.alkottob.com

فبصق المحقق على الأرض بعصبية، وقال: «لم تسمع نصيحتي».

واقتحم الغرفة من جديد الرجال الثلاثة، وكانوا متعبين تصرخ في أعينهم الرغبة في النوم. قال لي أحدهم: «اخلع بنطالك واستلقِ على بطنك».

فقاومت بشراسة غير أن أيدي الرجال الثلاثة كانت أقوى مني، واستطعت وأنا ملصق الوجه بالبلاط أن أبصر الانبوب المطاطي الطويل المتصل بصنبور الماء، وسمعت المحقق يقول: «ألن تتكلم؟».

واقشعرَّ جسدي لحظة أحسست بالانبوب المطاطي ينزلق بين إليتي، ثم تدفقت المياه عبر الانبوب مندفعة إلى جوفي.

«تكلم».

وكان الرجال الثلاثة يربضون فوق جسمي، وأيديهم تمسك بي وتمنعني من التحرك.

ضحك أحدهم بهزء. بصق آخر. هات سيجارة. ممنوع التدخين في أثناء العمل.

وركل المحقق رأسي بحذائه صارخاً: «تكلم. ستظل المياه تدخل معدتك حتى تصل إلى جمجمتك».

أغمضت عيني. دنا مني بحر مخيف، وهدرت أمواجه بجنون في أذني. وندت عني آهة عميقة بينما كان يضغط ثقل على بطني وصدري بوحشية تتزايد. وسمعت بغتة

www.alkottob.com

المحقق يقول بصوت تناهى إليَّ آتياً من مكان ناء: «يكفي هذا الآن. خذوه».

فحُملت إلى الزنزانة، وألقيت على كيس القش، واستسلمت للنوم تواً.

أفقت في الصباح، وتطلعت فيما حولي مشمئزاً، فلم أجد السجين الثرثار، فقلت لنفسي: لا بد أنه ينظف الغرف.

وتخيلته رجلاً لا يموت وعمله تنظيف غرف لا عدد لها، وعثرت بجانبي على كوب حديدي مملوء بشاي أسود ورغيف كبير من الخبز الأسمر، فابتدأت أقضم الخبز وأرتشف بين الفينة والفينة رشفة كبيرة من الشاي البارد، ثم نهضت واقتربت بتؤدة من كوة صغيرة، وأمسكت أصابعي قضبانها الباردة، وتطلعت إلى رقعة من السماء ذات الزرقة العميقة، وكانت الشمس ساطعة متوهجة، فقلت لنفسي: يا له من نهار كالبحر!

وحانت مني التفاتة إلى الحائط، فلمحت عليه كلمات كثيرة مبعثرة، قرأت بعضها بصوت عالٍ جامد: ساعدني يا الله.

وأحسست بألم حاد في قدمي، فعدت إلى فراش القش، واستلقيت عليه بينما جسدي كله يرتعد. جسدي مخلوق غريب مهشم. وسمعت ضجة تدنو من زنزانتي، فانكمشت بهلع. سأعترف.

www.alkottob.com

وفتح الباب، وفوجئت برؤية المحقق يقول لي بلطف: «صباح الخير».

وابتسم وأردف قائلاً: «انهض والبس حذاءك. لا تخف».

ووجدت صعوبة بالغة في حشر قدمي المتورمتين في الحذاء، وقال المحقق وهو يقدم لي سيجارة: «ألقي القبض على رجل له سوابق عديدة وقد اعترف بأنه قاتل اللّه».

وأشعلت السيجارة وأنا أقف محني الظهر أحملق ببلاهة.

قال المحقق: «ألم تفهم ما قلت؟ أنت الآن حر».

فأطبقت شفتاي على السيجار بعنف بينما ارتفعت في داخلي أصوات الفرح ثم نفثت دخان سيجارتي، وسألت المحقق بصوت كئيب: «هل عذب الرجل كثيرا؟».

فضحك المحقق، وقال بمرح: «لا تعذيب هنا. لا تنس هذا كي تظل بعيداً عن المتاعب. تستطيع الآن الذهاب. سأرافقك حتى الباب كي لا يمنعك الحراس من الخروج».

وعند الباب الخارجي، صافحني المحقق بود، وقال: «أنت شديد الشبه بأخي. مسكين مات. اذهب. لا ترجع ثانية».

وسرت على مهل. وعندما بلغت المنعطف تطلعت خلفي، فشاهدت البناية الصفراء، وكانت كحيوان مفترس. وحاولت أن أحثَّ خطاي غير أن قدميّ كانتا تؤلماني وتجبراني على التباطؤ. يا له من نهار!

www.alkottob.com

وصدمني ضجيج الشوارع الحار. محركات السيارات تهدر. الناس على اسمنت الأرصفة. الجرائد معلقة في واجهات المكتبات الصغيرة. فتيات وشباب يقفون عند باب السينما.. سيحضرون الحفلة الصباحية.. الشمس.. السماء الزرقاء.. امرأة تضحك.. رجل يمشي برصانة.. صبي نحيل بائع يانصيب. واستولى عليَّ خجل شديد عندما رمقتني بفضول فتاة صغيرة، وشعرت مرة ثانية بأن جسدي المهشم مخلوق غريب، وتذكرت أمي وأنا أمشي بخطى متثاقلة. كانت أمي تقول لي: «عندما يموت الانسان سيمشي على الصراط».

وتخيلت الصراط. انه سلك فولاذي رفيع كالشعرة، وحاد كشفرة السيف، مشدود فوق هاوية سحيقة. الانسان الصالح سيعبره بسهولة، أما المذنب فسيسقط بعد الخطوة الأولى.

وقلت لنفسي: سأسقط قبل الخطوة الأولى.

وأحسست بأني ذبابة ضائعة تبحث عن سطح صلب تتشبث به، ولعقت الدم المتجمد على شفتي المجروحة، وقلت: سأبحث عن البحر.

وظللت أسير حتى بلغت رقعة كبيرة من الأرض، بني في وسطها منزل واحد، وقد وقفت على عتبة بابه فتاة وديعة ذكّرتني بسعدى. قلت لنفسي: سعدى ميتة ويجب أن تموت كل النساء. وسقطت قبل أن ألمس الفتاة في حفرة ملأى بديدان تشبثت بلحمي وراحت تمتص دمي بشراهة،

www.alkottob.com

فصرخت مستغيثاً. وأسرعت الفتاة إلى انتشالي من الحفرة، وضمدت جراحي، وقالت بحنو: «أنت لا تحب القطط».

آه الأحزان تنبت في قلب الغرف المنعزلة المقفلة الأبواب، وقد يقبل الموت قبل أن يغتسل جلدي بمياه البحر.

سألت الفتاة: «أين البحر؟».

قالت الفتاة الوديعة: «ربما كان البحر خلف الغابة».

وأشارت بيدها إلى غابة خضراء كبيرة.

البحر البحر البحر.

ولم أستطع أن أتفوه بكلمة. وهرعت نحو الغابة.

وعندما أصبحت بين أشجارها، غرقت في دوامة أصوات:

حمامة بيضاء: «البحر جميل».

الأشجار: «البحر طفل».

الأزهار: البحر بعيد».

وجرفني دوار قاس، فارتميت على الأرض كحجر هوى من أعلى، وابتلعتني في الحال عتمة كثيفة، ورجعت إلى زنزانتي، وانحنيت والتقطت قلم رصاص ملقى على الأرضية الوسخة، وكتبت بيد ثابتة على الحائط: لا تساعدني يا الله.

فاقتادتني قوة مبهمة إلى محكمة قاضيها صارم الوجه، وناسها ملتصقون بذعر بخشب المقاعد.

www.alkottob.com

قال لي القاضي: «تكلم.. اعترف.. قل الصدق».

وشعرت كأن رجلاً ما من فولاذ يختبىء في جوفي وهو الذي بدأ يتأهب للتحدث. قلت بلهجة هادئة: «أبي يعشق أمي. أمي لم تكن تحب أبي. تزوجته لأنه غني. أنا لا أحب أبي وأمي. أبي يسكر باستمرار ويترنح في مشيته. وأظن أنه كان يحلو له أن يقول على الدوام: «لن ينبت العشب بعد موتي». وكنت أضحك في السر هازئاً بأنفه الشديد الاحمرار. وأمي كانت تحب الوقوف أمام المرآة، وتحب أن ترفع الثوب عن فخذيها حين تقعد. وكنت صغيراً ليلة سمعت أمي تقول: «انه نائم».

وسمعت أبي يقول: «أنا تعبان».

وسمعت أمي تقول: «انه نائم».

وسمعت بعد ذلك صوت لهاثهما المحموم.

وأنا أتمنى دائماً أن أكون مضطجعاً بالقرب من امرأة تقول لي: «انه نائم».

فأقول لها: «أنا تعبان».

فتقول لي وهي تلتصق بي: «انه نائم».

ثم يسمع صوت لهاثي صبي صغير، يلهث أيضاً وهو مختبىء تحت اللحاف».

قال القاضي: «أنت تكذب. أبوك رجل طيب فقير وأمك امرأة مسكينة متعبة. تكلم. تكلم.. لا تسكت».

فتابعت الحديث بصوت مرتجف قليلاً: «سلمى فتاة جميلة، أجبرتها ذات يوم على دخول منزلي بالقوة. وعندما

www.alkottob.com

كنت أسمع تأوهها المتوجع ونحيبها، كان يخيّل إليَّ بأني سيد العالم والرجل الوحيد الحي على سطح الأرض. كانت تبكي في الأيام الأولى فقط غير أنها أصبحت فيما بعد تفرح حين يلتقي جسدي بجسدها، ويقبلني فمها الأحمر بشراهة.

ولم تهرب ليلة نمت وتركتها بلا وثاق. وأغريتها في الليلة السابعة بشرب كمية كبيرة من العرق، فسكرت للغاية. أنا أيضاً سكرت، ولكن الجنون لم يدهمني إلاّ حينما لامست يداي نهديها. كانا صغيرين بعض الشيء، دافئين ومكتنزين. وأخذت سلمى تضحك وتقرصني وتشتمني وتصفعني بيدها الصغيرة، وتدغدغني كي أضحك، واعترفت أنها تحب شاباً يسكن حارتها، وقد سمحت له أن يقبّل شفتيها ويعبث بأجزاء من جسمها في أثناء تلاقيهما في الخفاء. واجتاحني الغضب حين قالت: «سأتزوجه». كنت سكران. انقضضت عليها، وطرحتها أرضاً ثم قطعت لحمها إلى أجزاء صغيرة الحجم. سلمى لم تتعذب كثيراً لأن المدية كانت حادة. وها هو دمها يخضبني ولن يجف».

قال القاضي بصوت غاضب: «سلمى لم تمت.. سلمى تزوجت غيرك.. تكلم عن البنت الصغيرة».

فقلت بتردد: «كانت بنت الجيران جميلة جداً. جسدها الأسمر الصغير أغراني بعنف، فعبثت به، وثملت بالهلع الصارخ في عينيها السوداوين، وكادت نشوتي تتبدد حين أغمضت عينيها. وكم سعدت حين أخذت تستغيث

www.alkottob.com

مغمغمة بصوت خافت: «يا ماما.. يا ماما». ستكبر هذه الصغيرة ولكنها لن تنسى يوم قالت لي مهددة: سأخبر أمك، فقلت لها وأنا أضحك: سيذبحك أهلك على حافة بالوعة.

قد أموت في يوم قريب ولكني سأظل حياً في مخيلة فتاة سمراء».

قال القاضي: «تكلم تكلم.. لا تسكت».

ـ: «احدى النساء في حارتنا، تشاجرت مع زوجها، فشربت سماً أحضره زوجها لقتل البق.. وظل البق حياً».

قال القاضي: «تكلم تكلم».

ـ: «في حارتنا قطة مجنونة تأكل أولادها بعد أن تلدهم ثم تظل طوال ليال كثيرة تنتقل بين المنازل وتموء بوحشية ضارية منادية صغارها».

قال القاضي: «تكلم تكلم».

ـ: «أمي بكت يوم مرضت».

فقال القاضي بصرامة: «أنت لا تحب أمك».

ـ: «أنا أحب أمي.. أحب أبي.. أحب كل الناس واللّه».

فقهقه القاضي طويلاً ثم قال ببرود: «خذوه إلى النار».

وفتحت عينيَّ بهلع، فإذا بالشمس ترمي لظاها على جسمي ووجهي وأنا ملقى على الأرض، فنهضت، وغادرت الغابة تتبعني أصواتها: «بعيد البحر بعيد».

www.alkottob.com

فقلت لنفسي: لن أموت وسأظل حياً كأرض خصبة إذا عثرت على البحر.

وكانت أمامي بلدة صغيرة، أسرعت إليها، وتجولت في طرقاتها. وفجأة أبصرت صديقاً قديماً، فاستولت عليَّ الدهشة، وقلت له: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

فضحك، وقال متسائلاً: «ما الذي أتى بك إلى هنا ؟».

وسرنا معاً ثم دخلنا خمارة، ورحنا نحتسي العرق الممتزج بالماء. قال صديقي بكآبة: «لم يبق في العالم ابتسامة».

فقلت له برصانة: «اسمع.. هذا ما يحدث: الحيوان ينتصر. جسد الانسان يخضع لتحوّل غامض وسيصبح بعد حين مخلوقاً عجيباً. قلبه جرذ، عيناه عنكبوتان، مخه عقرب، أصابعه ديدان، دمه صديد، فمه صرصار ميت. وستختفي كل الكلمات، وسيكون الصراخ الوحشي الصوت الوحيد المتردد في العالم».

فبلل الدمع وجه صديقي، وقال: «لن أصرخ».

ـ: «مياه البحر ستغسل الجسد. شمس البحر ستصرع الحيوان، وسيفقد الانسان غباره ويصبح كما يشتهي: طفلاً.. شاعراً.. قديساً.. بطلاً».

ـ: «أين البحر؟ ألم تجد البحر؟».

وودعت صديقي، وخرجت من الخمارة، وكانت طرقات البلدة متعرجة ضيقة طويلة. ودنت مني امرأة، وسألتني: «هل تملك مالاً؟».

www.alkottob.com

قلت لها: «ولماذا تسألين؟».

ابتسمت بإغراء، وقالت: «ألست جميلة؟».

فتأملتها ملياً. كانت عيناها زرقاوين، فامتلكني حنين عارم إلى البحر، وقلت: «أنت جميلة».

قالت: «سآخذك إلى بيتي إذا كنت تملك مالاً».

ورافقتها إلى بيتها، وهناك قالت بثقة: «أنا جميلة».

ـ: «أنت كالبحر.. لحمك رمل الشاطىء».

ـ: «ستسمع بعد قليل صرخة الأمواج».

فضممتها إليَّ بشراسة، وذاق فمي ملح لحمها بينما هدير الموج يصخب في عروقي.

قلت لها: «البحر في دمي».

فأجابت وهي تسترخي في استلقائها: «البحر في جسدي».

واشتد التصاقي بها وأنا ثمل بفرحي النامي، فلقد عثرت في النهاية على البحر. واستيقظ قطيع ذئاب، واندفع نحو اللحم الأبيض، وتمرغ في الرطوبة والندى.

همست المرأة: «آه».

وشيئاً فشيئاً تلاشت الذئاب، ونأى عني البحر، فتلفت حولي مضطرباً غير أن عيني المرأة الزرقاوين أعادتا إليَّ البحر.

قلت لها وأنا أعانقها بحنان: «لن أتركك.. سأعيش معك».

www.alkottob.com

-: «هل أنت غني؟».

-: «لست غنياً».

-: «ألا تريد ان تحيا سعيداً».

-: «أريد أن أحيا سعيداً».

-: «لن تحيا سعيداً إذا لم تكن غنياً».

-: «سأعيش معك حتى موتي».

-: «هل سنظل نحيا في هذا البيت المتهدم؟ انه قبر».

-: «سأعترف دون خجل: أنا أحبك».

-: «الحب ليس خبزاً».

«قلت وأنا أقبّل شعرها: «سيكون لنا بيت جميل له حديقة.. سنغرس في الحديقة شجرة ليمون. أنا أحب رائحة ورق الليمون.. أتحبينها؟ سنزرع البنفسج، وسينمو العشب الأخضر. سيكون لنا طفل سيناديك: «ماما»، وحين يفزع من شيء سيهرع إلى أحضانك محتمياً بك».

فبكت المرأة بصوت خفيض بينما تابعت الكلام قائلاً بحرارة: «سأشتغل.. سأجد عملاً.. سيكون لنا بيت صغير.. بيت وديع.. أثاثه أنيق.. وسنملك مذياعاً وفونوغرافاً واسطوانات كثيرة.. سنصغي إلى الموسيقى في الظلام ونحن متلاصقان وطفلنا نائم.. سنتحدى معاً وجه العالم الأسود.. لن نهزم.. لن تنحني رؤوسنا».

فأخفت المرأة وجهها في صدري، وقالت: «سأعيش معك».

www.alkottob.com

وقلت وأنا ألمس شعرها الناعم الأسود بحنو: «اسمي حسن».

قالت بعذوبة: «اسمي ليلى».

- ٢ -

تمنيت لو يموت أهل البلدة، فالنساء يرقبنني بفضول، ويبتسمن بخبث، والرجال يضحكون بهزء ويتهامسون ويبصقون بازدراء. ولقد اعترض طريقي ذات يوم شاب سكران، وقال لي: «أنت زوج ليلى. اشكرني إذا كانت حبلى.. لا.. لا.. أشكر أيضاً ذكور البلدة».

وطُرق بابي في ليلة من الليالي. ولم أكد أفتح الباب حتى هجم عليَّ أربعة رجال سكارى، وقيّدوني بحبل غليظ ثم حملوني إلى الغرفة. ولم أستطع أن أغمض عيني، وشاهدت ليلى تقاوم دون جدوى ثم تسقط تحت أجسادهم، ولم أستطع أن أغمض عينيّ، وخيّل إليَّ أني لمحت نشوة عجيبة على وجه ليلى. وسمعت نحيبها لما ذهبوا وانصفق باب البيت خلفهم.

قلت بصوت ذليل مرتعش: «ليلى ليلى».

فدنت مني، وحررتني من الحبل، ولم أتفوه بأي كلمة. وظلت ليلى تبكي حتى تعبت ونامت، وعندئذٍ تركت البيت، وغادرت البلدة.

فليمت أهل البلدة جميعاً. فلتكن زوجاتهم قطعان ماعز، ولتخرج الجرذان من مخابئها تحت الأرض ولتأكل الأطفال في مهودهم. فلتكن بلدة بلا أطفال حتى الأبد..

www.alkottob.com

سيدها الحيوان. وها هو ذا الليل يهبط فوق الأرض كسقف من الوطاويط وأنا بلا امرأة. لا بيت لي. وطفلي الذي انتظرته بكثير من الحنين والفرح تركته وانطلقت كريح غاضبة. سيأتي الغد. التراب جلد الأرض الخشن. سيضمحل التراب. الأرض فولاذ بارد. المحاريث يائسة محطمة. لا سنابل. لا شجر. الأنهار سود، جراح بلا ماء. المنازل مقابر. الملوك يمشون بكبرياء بلا رؤوس، ورؤوسهم تقدم في أطباق للشعب الجائع. فمك يا حبيبتي ليس خبزاً. النساء الهرمات يحتسين القهوة، ويثرثرن عن أطفال لن يأتوا. والرجال في الطرقات، شاحبة وجوههم، والخريف جثته في عيونهم.. لقد شنقوا القمر. ونهر من الأغنيات ينأى عن المدن كسحابة لها آلاف الأجنحة. الجراد يمحو اخضرار الأرض. الأمهات يخنقن أطفالهن، ويرمين جثثهم إلى كلاب تنتظر بأفواه مفتوحة تتدلى منها ألسنة طويلة مرتجفة. الشبان يذبحون آباءهم ويسكرون وهم قاعدون على اسمنت الأرصفة. الذباب يتسلل إلى أفواه الشبان ثم يتسرب إلي داخل الرؤوس، وهناك سيطنّ حتى يقبل الموت. حلّ موعد العشاء. العائلة السعيدة أكلت طفلاً مسلوقاً ـ كان طفلاً من أطفالها ـ ثم غسلت أفواهها، وأصغت إلى أغنية. آه يا ليلى. سيأتي الغد.

وأبصرت كهلاً يتوكأ على عصا وكان ظهره متقوساً، وخطواته متمهلة. قال لي: «أنا بائع متجول».

ـ: «ماذا تبيع؟».

ـ: «أبيع كلمات.. أتشتري؟».

www.alkottob.com

ـ: «نقودي قليلة».

ـ: «يحلو لي هذه الليلة أن أبدد كلماتي دون ثمن».

وسعل عدة مرات ثم قال: «لا تحترم أحداً. الشر لا يهزم. الصدق يجلب المتاعب. لا تدفن ميتاً».

فقلت له مقاطعاً: «أنا أبحث عن البحر».

فلم يأبه لي، وتابع كلامه قائلاً: «السعادة وهم والفرح لا يعيش طويلاً».

ـ: «البحر امرأة حنون».

ـ: «الهزيمة تنتظر البشر».

ـ: «الهزيمة تنتظر البشر».

ـ: «سيموت القمر.. ستموت النجوم.. ستموت الشمس.. سيغرق العالم في الظلام».

وصمت الكهل، ثم بدأ يغني. كان صوته خشناً أجش كئيباً.

نبت ورد أسود في قلبي. صوته خبز مبتلّ بالدموع.

قلت: «سيفنى لحمي إذا لم أجد البحر».

فكفَّ الكهل عن الغناء، وقال: «اقتحم الصحراء».

فأحنيت رأسي صامتاً، وسرت بجانبه، وحين وصلنا إلى إحدى القرى، افترق أحدنا عن الآخر دونما كلمة، ولكني قلت لنفسي: سأرى الكهل ثانية والمسامير في لحمه.

وكانت العتمة منتشرة في القرية. وكان ثمة كوخ ينبعث النور من شباكه، فاتجهت إليه، وطرقت الباب،

www.alkottob.com

وانتظرت طويلاً دون ان أسمع أي حركة. وبغتة فتح الباب، ووقف قبالتي رجل له وجه بشع، وتطل من عينيه نظرة باردة مظلمة. قال بجفاء: «ماذا تريد؟».

ـ: «أنا رجل غريب».

وعندما غدوت داخل الكوخ، سألني الرجل البشع: «أأنت جائع؟».

قلت على الفور: «لست جائعاً».

ـ: «اشرب من نبيذي».

ورفعت الكأس الزجاجية المملوءة بالنبيذ، وأدنيتها من عيني، فبدا النبيذ قرمزياً كأنه دم مسفوح تحت ضوء الشمس، وتجرعت رشفة ضئيلة ثم قلت: «يا له من نبيذ!».

فقهقه الرجل بخشونة بعثت في أوصالي ذعراً خفياً ثم قال: «كنت أحب امرأة».

ـ: «أنا أيضاً كنت أحب امرأة».

ـ: «ولم أحس في أي لحظة بأنها لي».

ـ: «ألم تكن تحبك؟».

ـ: «كانت تحبني بجنون».

ـ: «يا لها من امرأة!».

فقهقه الرجل البشع مرة ثانية، وقال مقلداً لهجتي: «يا لها من امرأة! أحسست فقط بأنها لي عندما صار دمها نبيذي».

www.alkottob.com

فجرعت جرعة كبيرة من النبيذ، وقلت: «أوه.. يا له من نبيذ!».

-: «أنت من ثلج».

-: «كنت أعيش في مدينة كان الثلج يتساقط فوقها أحياناً فيغطي طرقاتها وأسطح مبانيها، وكان الناس عندئذٍ ينسون وقارهم فيتصرفون كأطفال».

-: «أنا أكره الأطفال».

-: «طفلي سيبصر النور بعد شهر، وستأتي بضعة أشهر أخرى، وسيحاول طفلي أن يقول: بابا.. ماما».

-: «الأطفال كالكلاب الصغيرة يبولون في كل مكان، ويعولون باستمرار».

-: «أنت كنت طفلاً».

-: «المرأة تعطي الرجل الجنون والأطفال. أتعرف ما الذي سيحدث في وقت قريب؟ ستصير النساء عقيمات، وسيتناقص البشر تدريجياً حتى يتلاشوا نهائياً. وحينئذٍ لن يبقى سواي».

-: «أنت أيضاً ستموت».

-: «لن أموت.. سأمشي وحيداً في المدن المقفرة».

واتقدت نار شرسة في عينيه، فلذت بالصمت، وتصنعتُ التثاؤب، فقال الرجل البشع: «ارحل الآن. هناك مدينة كبيرة بعد مسير قليل».

فسألته وأنا أتمطى: «أتعرف أين البحر؟».

www.alkottob.com

ـ: «أعرف كوخي فقط، والبحر ربما كان في المدينة الكبيرة».

وقصدت المدينة الكبيرة وأنا متلهف على رؤيتها، وقد وجدتها ذات شوارع عريضة، تنتصب على جانبيها مبان حجرية ضخمة، أحسست وأنا أرمقها بضآلة عجيبة.

استأجرت غرفة في أحد البيوت، واشتغلت في معمل كبير، آلاته مخلوقات ذات أصوات غاضبة أبداً.

وشعرت في البداية بحب جارف لها. كنت ألمسها بحنان. كانت باردة ناعمة مصقولة، وكانت رائحة الزيت والحديد تخدرني وتحملني إلى شاطىء بحر غامض.

وفي يوم من الأيام، التهمت إحدى الآلات اصبع عامل، فامتلأ قلبي حزناً وشفقة، ولكن بقية العمال زمجروا غاضبين، فاعتذر صاحب المعمل، وأحضر في اليوم نفسه خروفاً ذُبح عند أقدام الآلة.

وعندما كان الدم الأحمر يتدفق من عنق الخروف، سرى في جسدي الارتياح، واستيقظ شوقي إلى البحر. لن أحب سوى البحر.

واشتريت في المساء وردة حمراء قالت لي: «أمي تركتها في السهول».

«وصرتِ وردة تباع».

«نهارك تبيعه أيضاً».

«البحر وحده لا سيد له ولا أحد يستطيع شراءه».

www.alkottob.com

وقضيت بضع ساعات الليل مع صديق من عمال المعمل. قال لي: «ماتت أختي ماتت».

-: «حطم الساعات كلها، ولا تفتش عن النجوم في الطين».

-: «ماتت».

-: «انتظر.. سيقبل البحر».

-: «البحر؟؟».

-: «البحر طفل في ساعات الصفاء.. أوه.. ما أروعه حين يغضب».

-: «لا أعرف ما البحر».

-: «البحر ليس آلة ولا بناية ولا سيارة ولا اصبعاً مبتورة ولا خروفاً دمه أحمر».

-: «خذني إلى البحر».

-: «أين البحر؟ لا بد أن أختك صارت طيراً أبيض يحوم فوق مياهه الزرقاء».

وشاهدت في أثناء عودتي إلى غرفتي رجلاً سكران يترنح، فاعترضت طريقه وقلت له متسائلاً: «أين البحر؟».

فتجشأ السكران بينما وجهه يكاد يلتصق بوجهي، وقال: «في آخر الشارع خمارة.. اذهب إليها».

وذهبت إلى الخمارة، وأخذت أجرع العرق بشراهة ثم دفعت ثمن ما شربت، وخرجت إلى الشارع، ولم أكد أسير بضع خطى حتى سقطت منهاراً على الرصيف.

www.alkottob.com

واكتشفت وقتئذٍ بحراً عجيباً بينما ظهري ملتصق ببلاطات الرصيف البارد، وكانت فوق وجهي السماء المرصعة بالنجوم الكثيرة العدد.

رأيت أمي تبكي بعنف وتقول: «لا ترحل يا حسن».

وتبكي وتقول: «عد إليَّ».

وتبكي وتقول: «يا ولدي يا ولدي».

وأبي يبصق ويقول: «لن ينبت العشب بعد موتي».

وتنتحب سلمى حبيبتي التي تزوجت غيري وتقول: «حسن.. أهلي أرغموني على الزواج من رجل لا أحبه».

أقبلت عربات الحزن. الغابات النارية في عروقي تحرق الأجنحة. أنا في قاع الأرض. رماح الليل الغامض مغروسة في قلبي.

سلمى تقول: «أحبك».

وأمي تبكي، وأبي يقول: «لن ينبت العشب بعد موتي».

وانحنى فوقي في تلك اللحظة حارس ليلي، وقال: «انهض.. سأعاونك على المسير.. بيتك بعيد؟».

وأوصلني الحارس إلى غرفتي، ولم أشكره، ووقفت أمام المرآة، وتطلعت. كان وجهي أصفر، وفي العينين نظرة سوداء شعرت في البدء أني لست صاحبها. وشيئاً فشيئاً أحسست بحب لها. وأجلت نظراتي فيما حولي فإذا بصرصار على الحائط، فأمسكته، وكشفت عن ذراعي، وتركت الصرصار يدبّ على لحمي. واجتاحتني قشعريرة حادة مؤلمة، وأيقنت بأني ما زلت حياً، والبحر ليس بعيداً..

www.alkottob.com

بحر مياهه في بدء النهار خضراء ثم تصير زرقاء، وأمواجه ذات زبد أبيض يضرب صخور الشاطىء دون ملل.

وفي الأيام التالية، امتنعت عن الذهاب إلى المعمل، وأخذت أقضي أكثر أوقاتي في مقهى كبير قابع على جانب شارع رئيسي. وكان مقهى يؤمه رواد من مختلف الطبقات، وهم لا يتبدلون إلاّ في أيام نادرة، وهناك عرفت رجلاً وجهه قاس وشعره مشعث والسيجارة لا تفارق فمه، وكان يعشق فتاة لا تعرفه، ويحلو له أن يتحدث عن أشعاره التي يزمع نشرها في كتاب. قلت له مرة: «ألا تحرق أشعارك إذا نلت حبيبتك؟».

وهناك في المقهى تعرفت إلى رجل آخر، ضخم الجثة، له ذقن سوداء، تضفي على وجهه مسحة شيطانية. وكانت مهنته قراءة الكف، فهو يعرف الماضي والحاضر والمستقبل، ولكنه كما اعترف لي كان يجد صعوبة في العثور على خبزه اليومي. قال لي: «البشر قانعون. إنهم يعيشون بطريقة ما ولا يهتمون بحياتهم».

ـ: «ماذا تريد منهم أن يفعلوا؟».

ـ: «أن يعشقوا الشمس».

ـ: «عشق البحر أفضل».

ـ: «أنا أحب الشمس لأنها لن تطرق بابي في آخر الشهر مطالبة بثمن نورها».

وكان في المقهى عدد من المقامرين. أحدهم أصلع،

www.alkottob.com

ويغنّي بمرح حين يبدأ بالربح، لذلك فقد لقَّبه رفاقه بالعندليب.

قلت له: «بماذا تشعر عندما تخسر؟».

قال: «أشعر بأني مرحاض وسخ».

قلت: «وبماذا تحس وقت تربح؟».

قال: «أحس بأني رجل أنيق يبول بكبرياء في مرحاض وسخ».

وكان هناك أيضاً عدد من الشبان الذين ما زالوا طلاباً. وكان أكثرهم مرحاً (الاله) ـ هكذا ينادونه ـ كان يقول: «من شتمني ثلاث مرات دخل جنتي وعلى رأسه تاج وسأهبه مئة امرأة».

أنساني المقهى البحر، وجعلني أغرق في حياته، ولكني سئمته بعد حين، وتعاظم مجدداً شوقي إلى البحر، فخرجت أتنزه في البساتين المحيطة بالمدينة. قعدت تحت أغصان شجرة رمان، قالت لي: «بالأمس نام تحت أغصاني عاشقان».

«شاب وفتاة؟».

«شاب يحب الماضي وفتاة تحب المستقبل».

«هل تبادلا القبل؟».

«كانت شفتا الفتاة ترتجفان وهما تنتظران».

«هل باح الشاب بحبه؟».

www.alkottob.com

«الشاب مرتبك خجول، وعندما قال للفتاة: «أحبك» صار وجهه كفمها».

«أنا لا أحب».

«ستموت على مهل».

«لن أموت قبل أن أقابل البحر».

«ستموت ما دمت بلا حب. سيأكلك وحش مختبىء تحت جلدك».

«أريد أن أضحك مرة واحدة قبل موتي».

فصمتت شجرة الرمان بينما ابتدأت تحدثني زهرة برية بيضاء. قالت: «غردت البلابل لي».

«البلابل لا تحب البحر».

«البلابل تحبني».

«البلابل تحب غناءها فقط».

«أنا أحب السماء الزرقاء».

«الغربان تحب السماء».

«ستموت الغربان».

فنهضت، ومشيت قليلاً مستنشقاً الهواء الذي كان يهبُّ رطباً ندياً ممتزجاً بعطر مبهم.

نادتني ساقية صغيرة: «حسن حسن».

«مياهك ليست مالحة».

«مياهي من الغيوم».

www.alkottob.com

«ليتك بنت بحر».

وقال ظلي الأسود المرتمي أمامي: «سيكون البكاء بلا دموع».

قال التراب: «ليت المطر ينهمر».

قلت: «كنت عاشقاً تحملني عربات الحزن إلى مرافىء نائية».

قال التراب: «ركضت فوقي الخيول كإعصار غاضب، ولمعت السيوف في ضوء الصباح، وارتويتُ من الدم وأعطيتُ أزهاراً حمراً».

فتهالكت على الأرض، وكلي شوق إلى سماع أغنية كآبة تبوح بها أوتار عود.

قال التراب: «الشمس الليل القمر النجوم النهار.. كلهم يحبونني.. وأنا أحب المطر».

ولعقت شفتي بلساني بينما كان التراب يقول: «كان في قديم الزمان فتاة جميلة، كان جسدها يحب أحد الشباب، وكانت تعرف أن أخاها مصمم على قتلها، ولكنها لم تتردد أو تعارض ورافقته إلى أرض بعيدة عن المدينة. وعندما كانت السكين المرتجفة تدنو منها، لمحت الفتاة في عيني أخيها رغبة في البكاء وذلاً وشهوة، فعرفت في الحال سره الدفين وصاحت: «أخي أخي». أوه لقد أعطيت البشر قمحاً وأزهاراً وأشجاراً وعشباً أخضر».

قلت للتراب: «آلاف الليالي تعاقبت دون أن أعثر على البحر».

www.alkottob.com

وعدت أدراجي إلى المدينة، واتجهت نحو غرفتي الجديدة التي استأجرتها بدلاً من الغرفة القديمة الأولى التي تركتها لأني شعرت بأني مهدد بخطر مجهول غامض، فقد كنت أملك ألف قناع، لذلك فقد أبدى أهل البيت اعجابهم بي، فأنا ـ كما قالوا ـ خجول، وأخلاقي فاضلة. وطلبت مني زوجة صاحب البيت أن أساعد ولدها في دروسه. أريد خدمة يا جارتي. كان ولدها في الرابعة عشرة من عمره، شديد الجمال، ولكن أخته كانت تفوقه في الجمال، وتكبره بعدة أعوام.

كنت أشعر بأن ذلك الفتى خاضع لي خضوعاً غامضاً، ولقد ابتدأت أسأله عن أخته.

كانت أسئلتي في البداية عادية ثم تبدلت فأضحت وقحة: «هل شاهدت أختك بلا ثياب؟ هل شاهدت فخذيها؟ هل لمستهما؟ هل هما ناعمان؟ هل نهداها كبيران؟ هل شاهدت أكثر من ذلك؟».

وكان يجيب عن أسئلتي بارتباك. ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى لاحظت أنه قد بدأ يجد لذة في مراقبة أخته، وكان يسرد عليَّ بحماسة أوصاف مفاتنها المختبئة. وفي يوم ما، كان الأخ والأخت وحيدين في البيت، فأمسكتُ الأخت وحاولت تقبيلها، فمانعت وقاومت، فقلت لها: «هل أنت خجلة من أخيك؟ انه لا يعارض ولن يخبر أحداً».

وأدرت وجهي إليه، فوجدته شاحباً، يصرخ في عينيه

www.alkottob.com

حقد ضار بعث في جسدي رعباً مبهماً، دفعني إلى ان أنتقل إلى غرفة جديدة في اليوم التالي.

وقفت عند مكتبة صغيرة، واشتريت جريدة اهتممت أن تكون صفحاتها كثيرة العدد، وعدت إلى غرفتي الجديدة، وهناك استلقيت على ظهري، وطفقت أقرأ الجريدة حتى انتهيت منها ثم مزقتها ورميتها من النافذة المطلة على الشارع ثم تجولت قليلاً في أرجاء غرفتي. وكانت الشمس خلف زجاج النافذة عصفوراً أصفر حائراً أضاع عشه.. أوه.. الجراد ينبت في الدم. العالم كهف مظلم. الماء بعيد. حاولت أن أغنّي ولكن كآبة قاهرة أسكتتني. أقبل الليل سريعاً.

وانهمرت الأمطار، فانحدرت إلى الشوارع، وكان المطر مفعماً بعذوبة نادرة، وكانت المدينة امرأة أغمضت عينيها منتشية بالغناء الذي تردِّده الأمطار.. امرأة جسدها الناضج عار ويحب أن يحيا وحيداً.

قلت لنفسي: ليت دمي سمُّ أفعى.

ورأيت رجلاً يمشي ببطء غير عابىء بالمطر الذي يبلل ثيابه، وكان ينتحب بحرارة، فاقتربت منه، وسألته: «ما بك؟».

فخلع معطفه، فإذا بجسده مثخن بجراح طويلة عميقة، تطل منها رؤوس فئران ضئيلة الحجم، فابتعدت عنه مهرولاً تحت المطر بينما المصابيح الصفر تتناثر فوقي بفوضى.

www.alkottob.com

ووقفت عند باب منزل، نساؤه مومسات، وقلت لنفسي: يجب أن اختبىء.

ودلفت إلى الداخل، واخترت امرأة ذات وجه أسمر بشوش.

قالت لي: «اخلع ملابسك بسرعة».

فظللت متجمداً في مكاني، فقالت: «أأنت خجل؟».

فضحكتُ بوقاحة، وقلت: «من لا يخجل في غرفتك؟».

-: «هل أتيت من السماء؟».

-: «كيف عرفت؟ ومن أخبرك؟ لقد أتيت من السماء. لم أكن وحدي. كان معي صديق، وكانت شهوة البشر في عروقنا».

-: «أين أجنحتك؟».

-: «فقدت أجنحتي. سرقتها المدن. البحر وحده سيعطيني أجنحة».

-: «ربما رجعت إليك أجنحتك لو قبّلتني».

وعندما انزلقت شفتها بين شفتي، أحسست على الفور بطعم غريب في فمي، فأبعدت المرأة قليلاً عني، وحملقت إلى وجهها الذي لم يكن جميلاً غير أن في عينيها ابتسامة بدت لي كأنها نار نائية تلوح للمسافر الضائع في صحراء شاسعة، فاحتضنت المومس بين ذراعي بحركة مفاجئة يائسة.

www.alkottob.com

وكانت الأمطار تنهمر بغزارة خارج الغرفة، وظلت تنهمر اثر خروجي من غرفة المومس. ووقفت تحت المطر مدة طويلة ثم قلت لنفسي: لا فائدة.. البحر بعيد والأجنحة احترقت مرة ثانية.

وأغمضت عيني هنيهة، وكان العالم عندئذٍ غامضاً مرتجفاً، ينبض قلبه بلهفة عارمة. انه ينتظر بهلع مقدم مجهول. وتوجهت مسرعاً نحو غرفتي، ولم أضء النور، وتمددت باسترخاء بينما ابتدأت الموسيقى تنساب من المذياع.

تدفقت الموسيقى، وامتزجت بأصوات المطر تتساقط خارج الغرفة. ثمة مزمار حزين يئنُّ، وجوقة تردِّد لحناً ميت العذوبة، والمزمار يئنُّ وينوح.. وأنا مطبق الجفنين.. أحاول أن أتذكر ماضياً نائياً.. اسمي حسن غير أني لم أكن في القديم أملك هذا الاسم.. كانت حياتي بيضاء، كان لا بد من لحظة سوداء مدمرة.. وانبثقت اللحظة السوداء.. لا لا.. لن أنحني لكومة التراب.. وتلاشى العالم الأبيض وانحدرت إلى عالم جديد.. ألقيت طفلاً.. أعطيت أباً وأماً، وحاولا أن يجعلاني أعيش كما يعيشان، ولكني كنت اللحظة السوداء متجسدة في مخلوق من لحم ودم.

الموسيقى فقدت غضبها وكآبتها، وغدت رقصة فرح ثملة. ضحكت ببلاهة. أعجبتني ضحكتي. ضحكت مرة ثانية. نهضت. أضأت المصباح الكهربائي. وقفت أمام المرآة، وتطلعت إلى وجهي، فصدمتني في البدء نظرة عيني الباردة المظلمة، ولكني سرعان ما شعرت بأنها منبثقة من

www.alkottob.com

صميمي.. أنا النظرة الباردة المظلمة. البحر بعيد.. وأنا متعب. سأعود إلى مدينتي.

- ٣ -

ها هي مدينتي متسولة نائمة.. وقد التقيت قبل قليل برجل مذعور، أنبأني بأن مدينتي غزاها رجال غرباء قساة، ونصحني بالابتعاد عنها، ولكن حنيني إليها كان أقوى من أيّ رعب.

وها هي مدينتي المتسولة النائمة. ميت ربيع حقولها الأخضر، تطوقها من كل جانب الأسوار الحجرية. وارتعدت وأنا أدنو من أحد أبوابها. واعترض طريقي رجال، قاتمة وجوههم. قلت لهم: «أريد الدخول. أنا من أبناء المدينة. كنت مسافراً».

فقالوا لي بسخرية: «إذن أنت من أبناء المدينة؟!».

ولم يطلقوا سراحي إلاّ بعد أيام عديدة، وقد حوَّلتني أيديهم الفظة مخلوقاً قد يشتهي امرأة ما وقد يقبِّلها ويلمس جسدها بنهم ولكنه سيضطر إلى تركها وهو يرتجف حسرة.

كانت المنازل صامتة، والشوارع شبه مقفرة، تدق أرضها أحذية الرجال الغرباء، وكان باب البيت الذي ولدت فيه موارباً. دخلت. أمي تبكي ثم تفرح ثم تطلق الزغاريد. سألتها: «أين أبي؟».

قالت بصوت متهدج: «سرق رغيفاً.. قطعوا ذراعه.

www.alkottob.com

سرق رغيفاً آخر.. قطعوا ذراعه الثانية.. ثم عاد ذات مساء لحماً ممزقاً بلا رأس».

أين يا أمي شعر أبي الأبيض؟ أين شاربه الكث المتهدل؟ أين عيناه الصامتتان الوديعتان؟ ضحكته صباح.. أين غضبه وفرحه؟

سأقف عند مفترق الشوارع، وأمدُّ كفيّ طالباً من المارة بضعة قروش.

سأفصل رأسي عن جسدي وأعطيه لجثة أبي.

نامي يا أمي.

سأبكي بحرارة إذا متّ ولكنني سأفرح أيضاً لأني سأرث سريرك العريض المريح.

قالت أمي: «الغرباء يأكلون خبزنا كله».

ـ: «نامي يا أمي نامي».

ـ: «رجالنا عبيد».

ـ: «نامي».

ـ: «البارحة قتل مئة رجل.. مئة رجل.. غابة خضراء أحرقها الغرباء».

ـ: «نامي يا أمي».

ولذت بالصمت وقتاً طويلاً. عذبني الجوع. قلت لأمي بخجل وذل: «أنا جائع».

قالت: «أنا لم أذق طعاماً منذ أيام».

www.alkottob.com

فخرجت إلى الشوارع، وقلت لنفسي: يجب أن أجد أيَّ عمل.

وكانت المعامل والدكاكين قد أصبحت كلها ملكاً للرجال الغرباء.

وقفت أمام باب معمل، وقلت: «أريد أن أشتغل».

فرمقني صاحب المعمل الذي كان واحداً من الغرباء، وقال: «أنت هزيل».

قلت وأنا أشعر أني كلب ينبح طالباً عظمة يلعقها: «أنا قوي».

ـ: «اذهب. أنت هزيل ووقح. اذهب ومت».

فلم أيأس، وظللت أذرع الطرقات باحثاً عن عمل. عثرت على شركة تطلب موظفاً، فقلت لمديرها: «أعتقد أني أملك الكفاءة اللازمة للعمل في شركتكم».

فأجاب بازدراء: «لا عمل عندنا».

وعندما خرجت من غرفته، قال لي أحد الموظفين ناصحاً: «إذا أردت أن تشتغل فليكن حذاؤك لامعاً وملابسك أنيقة ووجهك حليقاً. ابتسم باستمرار. انحنِ كثيراً. ردد بخضوع: أمرك سيدي.. أمرك سيدي».

فقلت له: «اذهب ونصائحك إلى الجحيم».

واستأنفت الطواف في الشوارع.. أوه.. مدينتي كانت في الأيام القديمة زهرة من أزهار الياسمين المغروس بكثرة في باحات بيوتها، ولكنها أضاعت وجهها الأبيض منذ أن وطأتها أحذية الرجال الغرباء. الأطفال لا يضحكون.. لا

www.alkottob.com

يلعبون في الحارات.. لا يتراشقون بالحجارة. كل النساء عاهرات. الرجال يمشون بتثاقل ذليل، رؤوسهم منكسة، ووجوههم صفر وكثيرون بترت ألسنتهم.

نظرت إليَّ إحدى النساء، وضحكت مبتهجة. رمقتها باستغراب. قالت: «ألم تعرفني؟ أنا سلمى».

وكانت سلمى فتاة جميلة، ولكن المرأة الواقفة أمامي ذات وجه أصفر متجعد، وفمها بلا أسنان.

قلت بذعر: «سلمى.. ما الذي حدث؟».

ـ: «الرجال الغرباء قتلوا زوجي ثم نبذوني لما فقدت جمالي. أما زلت تحبني؟».

فحملقت إلى وجهها ثم ابتعدت مشمئزاً دونما كلمة. وتوقفت بعد قليل حين أبصرت رجلاً هرماً يحاول أن يمنع الرجال الغرباء من سلبه ابنته الصبية، وكان الرجل الهرم شديد الشبه بأبي. ووجدت نفسي أقف بجانبه وأقاتل بضراوة. ولم تمض سوى لحظات حتى سُدِّدت الينا البنادق، وغرقت في طوفان ناري. ولم يكن وراء ظهري أيُّ حائط. وعندما سقطت منهاراً على الأرض الصلدة شاهدت سحباً من الجراد تمتلك السماء الزرقاء وتحجب وجه الشمس الأصفر.

ـ ٤ ـ

هل الشمس تشرق كل صباح؟ أنا بائس يا أمي. هل قدماك تؤلمانك؟ اغمسيهما في الماء الساخن قبل النوم. هل تضحكين أحياناً يا أمي؟ اضحكي كثيراً. أنا لا أستطيع

www.alkottob.com

الضحك أو البكاء لأن الديدان والجرذان أكلت رئتي وعينيَّ وحنجرتي. أرسلي إليَّ ملابس صوفية. آه القبر بارد يا أمي وشمس البحر نائية.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

امرأة وحيدة

www.alkottob.com

عزيزة صبية جميلة، تخاف القطط السود، ولقد كانت مضطربة لحظة قعدت قبالة الشيخ سعيد، وكانت عيناه قطعتين من السواد المتوحش، تحاصران عزيزة التي كانت تحاول الافلات من هلع ينمو ويتزايد رويداً رويداً، بينما رائحة البخور المتصاعدة من وعاء نحاسي تفعم أنفها وتخدر لحمها ببطء.

ويقول الشيخ سعيد: «إذن تريدين أن يرجع إليك زوجك؟».

أجابت عزيزة بتردد: «أريد أن يرجع إليَّ».

فابتسم الشيخ سعيد بينما أردفت قائلة باكتئاب: «أهله يريدون تزويجه مرة ثانية».

قال الشيخ سعيد وهو يرمي في وعاء الجمر نتفاً من البخور: «سيعود إليك زوجك، ولن يتزوج مرة ثانية».

وكان صوته وقوراً هادئاً منح عزيزة الطمأنينة، فندت عنها آهة ارتياح طويلة، ابتهج لها وجه الشيخ وقال: «لكن عملي يتطلب مالاً كثيراً».

www.alkottob.com

فاكتأب وجه عزيزة، وقالت وهي ترمق سواراً ذهبياً في معصمها: «سأدفع لك ما تريد».

ضحك الشيخ ضحكة قصيرة حادة، ثم قال: «ستخسرين قليلاً ولكنك ستربحين زوجك.. أتحبينه؟».

غمغمت عزيزة بسخط: «لا أحبه».

-: «اختلفت معه؟».

-: «تشاجرت مع أهله».

-: «هل تشعرين بضيق في صدرك؟».

-: «أشعر أحياناً كأن حجراً ثقيلاً على صدري».

-: «أتشاهدين أحلاماً مزعجة في أثناء نومك؟».

-: «أستيقظ دائماً في الليل وأنا مرعوبة».

فهزّ الشيخ سعيد رأسه عدة مرات، وقال: «لا بد أن أهل زوجك قد سحروك».

ارتاعت عزيزة وهتفت: «ما العمل؟!».

-: «فسخ سحرهم يحتاج إلى بخور ثمنه عشر ليرات».

فوجمت عزيزة لحظة ثم مدّت يدها إلى صدرها، وأخرجت منه عشر ليرات، وأعطتها للشيخ سعيد قائلة: «هذا كل ما أملك».

فنهض الشيخ سعيد، وأسدل ستائر قاتمة على النافذتين المطلتين على الزقاق الضيق المتعرج، ثم عاد إلى القعود أمام الوعاء النحاسي الذي تتقد فيه الجمرات فوق رماد أبيض

www.alkottob.com

ناعم، وأخذ يلقي البخور وهو يقول: «أخوتي الجان يكرهون النور ويحبون العتمة لأن بيوتهم تحت الأرض».

وكان النهار خارج الغرفة امرأة لحمها أبيض، والشمس يتوهّج ضياؤها الأصفر في الطرقات ويمتزج بصخب الناس غير أن غرفة الشيخ سعيد كانت مظلمة ساكنة.

-: «اخوتي الجان لطاف. ستكونين محظوظة إذا نلت حبهم. انهم يحبون النساء الجميلات. انزعي ملاءتك».

وتخلت عزيزة عن ملاءتها السوداء، فبدا لعيني الشيخ سعيد جسدها الناضج في ثوب ضيق، وابتدأ يقرأ في كتاب أصفر الأوراق بصوت خفيض غامض النبرة، ثم قال بعد حين: «اقتربي.. تمددي هنا».

واضطجعت عزيزة بالقرب من وعاء البخور، فوضع الشيخ سعيد يده على جبهتها وهو مستمر في تلاوة كلمات غريبة الرنين، وبغتة قال لعزيزة: «اغمضي عينيك. سيحضر اخوتي الجان».

أطبقت عزيزة عينها، وصعد صوت الشيخ خشناً آمراً: «انسي كل شيء».

يد الشيخ تلمس وجهها الناعم. تذكرت أباها. يد الشيخ خشنة، ورائحتها غريبة. يد كبيرة، ولا بد من أنها كثيرة التجاعيد، وصوته غريب يعلو شيئاً فشيئاً في الغرفة الصامتة ذات الجدران الترابية.

وتبلغ يد الشيخ عنق عزيزة. وتذكرت عزيزة يد زوجها. يده ناعمة طرية كيد المرأة. هو يعمل كاتباً في دكان البقالة

www.alkottob.com

التي يملكها والده، ولم يحاول في أيّ مرة أن يداعب عنقها برقة إنما كان يعتصر بأصابع شرهة لحم فخذيها. الشيخ يلمسها بكلتا يديه. يداه على صدرها تربّتان على نهديها الناضجين برفق وتنحدران إلى بقية الجسد ثم تعودان إلى النهدين وقد فقدتا رفقهما فضغطتا عليهما بضراوة، فتأوهت عزيزة، وفتحت عينيها بصعوبة لتشاهد دخاناً خفيفاً منتشراً عبر فراغ الغرفة.

وأبعد الشيخ سعيد يديه عن عزيزة، ومضى يقرأ ويرمي البخور فوق الجمر المتقد في الوعاء النحاسي ثم قال: «سيأتي اخوتي الجان.. سيأتون».

فسرت في جسد عزيزة قشعريرة حادة، وأغمضت عينيها، وسمعت الشيخ سعيد يقول بصوت تناهى إليها كأنه آت من آخر العالم: «اخوتي الجان يحبون النساء الجميلات. أنت جميلة وسيحبونك. أريد أن يروك عارية عندما يقبلون وسيبعدون عنك كل سحر».

همست عزيزة بذعر: «لا لا».

فجاءها تواً صوت الشيخ كصدى صارم: «سيؤذونك إذا لم يحبوك».

وتذكرت عزيزة رجلاً أبصرته مرة في الشارع، وكان يصرخ كحيوان جريح ثم ارتمى على الأرض والزبد الأبيض على فمه وأخذ يحرك ذراعيه وساقيه كغريق.

ـ: «لا .. لا .. لا».

ـ: «سيأتون».

www.alkottob.com

وازدادت رائحة البخور وتكاثفت، وراحت عزيزة تتنفس بصوت مسموع. وهتف الشيخ سعيد فجأة: «تعالوا تعالوا يا مباركين تعالوا».

وسمعت عزيزة ضحكات خافتة مرحة وكلمات غير مفهومة، وأحسّت أن الغرفة اكتظت بمخلوقات قزمة كثيرة العدد، ولم تتمكن من فتح عينيها على الرغم من محاولاتها المتكررة، ولفحت وجهها أنفاس حارة، وأطبق فم واحد على شفتها السفلى واعتصرها بنهم.

وكانت السجادة خشنة تحت ظهرها العاري، وكان البخور يتجمع ويتحول رجلاً يحتضنها بين ساعديه ويخدرها بقبلاته. وشبّت نار جائعة في دمها بينما كان الفم يترك شفتها وينتقل إلى بقية الجسد.

عزيزة تلهث ولا تتحرك. خوفها يضمحل، وتتذوق على مهل نشوة ذات طعم جديد. أوه. تبتسم. تضحك. أبصرت نجوماً بيضاً وسماء زرقاء قاتمة وسهولاً صفراً وشمساً من نار حمراء. وتسمع عزيزة خرير نهر بعيد. النهر. انه ناء. لن يظل نائياً. تضحك بمرح. الحزن طفل يركض مبتعداً عنها. إنها الآن طفلة كبيرة. قبّلها ابن الجيران وعانقها. لا لا.. هذا عيب. وعندما كان أجير الخباز يناولها أرغفة الخبز وهي واقفة على باب البيت، مدّ يده وقرص حلمة نهدها الصغير. تألمت. غضبت. ارتكبت. أين يده؟ ها هي يده تمتلك جسدها ثانية. وفي ليلة العرس أطلقت صرخة، والآن لا تصرخ. أبصرت أمها تمسك منديلاً مبتلاً بالدم يتفرج عليه أقاربها بفضول،

www.alkottob.com

وتصيح أمها ووجهها يبوح بفرح طاغ: «بنتي من أشرف البنات. ليمت الأعداء غيظاً».

وتعود عزيزة إلى حقول صفر.. حقول بلا ماء. الغيوم في الأعالي. الشمس نار تدنو من عزيزة. تتلوى عزيزة وتتهالك منتشية تحرقها حرارة قاسية. الشمس نار تقترب وتتسلل إلى الدم، ولا تحاول عزيزة الفرار إنما تضاعفت نشوتها حتى بلغت الذروة، وعندئذٍ هطل المطر، وارتعد جسدها كله.

وابتعد الشيخ سعيد بعد قليل عن جسد عزيزة العاري، واتجه نحو النافذتين وأزاح عنهما الستائر، فتدفقت في الحال شمس النهار إلى الغرفة، وتألق لحم عزيزة الأبيض مغموراً بالضوء الساطع.

وتململت عزيزة، وفتحت عينيها بتؤدة وحذر، ففوجئت بضياء الشمس، ونهضت مذعورة، فقال لها الشيخ سعيد: «لا تخافي. اخوتي الجان رحلوا».

وانحنت عزيزة بإعياء، وكانت متعبة، وخجلة، والتقطت أول قطعة من ثيابها، وتمنت لو ظلت أمداً طويلاً مستلقية من دون حراك مغمضة العينين.

ومسح الشيخ سعيد فمه بظهر يده، وقال لها ثانية: «لا تخافي.. رحلوا».

فترقرقت الدموع في عينيها بينما تعالى في تلك اللحظة في الزقاق صياح بائع متجول، وتناهى إلى سمعها كأنه بكاء رجل يائس لن يموت.

www.alkottob.com

وبعد دقائق كانت عزيزة تمشي وحيدة في الزقاق الضيق الطويل المتعرج. وحين رفعت وجهها إلى أعلى متطلعة بلهفة، لم تعثر على أي طائر عابر إنما كانت السماء زرقاء خاوية.

www.alkottob.com

الطائر

www.alkottob.com

www.alkottob.com

[redacted]

أفاق عباس من نومه على مواء قططه الثلاث الجائعة، فقال لها وهو يفتح باب البيت: «اخرجي وابحثي عن طعام فالجائع لا يطعم جائعاً».

فلم تطعه القطط، وظلت تموء متمسّحة بساقيه، فارتدى ثيابه بحركات سريعة مضطربة، وغادر البيت، ومشى في الشوارع المغمورة بشمس الصباح رجلاً شاحباً، فارغ المعدة تواقاً إلى تدخين سيجارة واحتساء فنجان قهوة. واستمر في السير حتى بلغ إحدى البنايات، فوقف بالقرب من مدخلها، وراح يرقبه بلهفة، وفجأة أبصر فتاة تدنو من مدخل البناية، فسارع إلى الاقتراب منها، وقال لها: «نهلة.. صباح الخير».

قالت نهلة متجهمة الوجه: «صباح الخير».

ثم أضافت متسائلة: «ماذا تريد؟».

فتأملها مرتعشاً. كانت قرنفلاً أبيض وعينين سوداوين.

قال لها بارتباك: «غداً عيد ميلادي».

www.alkottob.com

قالت بغيظ: «هل تريد أن أزغرد؟».

قال بصوت متهدج متوسل: «أراك غدا؟».

ـ: «لا».

ـ: «لماذا ترفضين؟».

ـ: «اصغ إلى ما سأقول. في الليل لم أنم ولا لحظة بسبب وجع في أسناني، وأنا الآن لا أحتمل رؤية أمي ولو عادت من القبر».

ـ: «دعيني أرَك خمس دقائق فقط».

ـ: «أف. الأمور بيننا واضحة كل الوضوح. أنت تحبني وأنا لا أحبك ولن أحبك ولو مات كل الرجال وبقيت وحدك الحي، فهل تريد توضيحاً أكثر؟».

ـ: «أرجوك يا نهلة.. كوني..».

فقاطعته نهلة قائلة: «سأذهب. تأخرت عن عملي».

وراقبها بحسرة وخجل بينما كانت تغيب في جوف البناية، ثم تابع سيره محني الرأس، وتخيّل مطراً من نار يتساقط فوق المدينة فيحرق الضحكات والدموع.

وفجأة اعترض طريقه عدد من الشبان، وقال له أحدهم متسائلاً: «أتسمح لي يا استاذ بأن أسألك سؤالاً؟».

قال عباس: «اسأل ما تشاء».

قال الشاب: «لحيتك؟ حقيقية أم مستعارة؟».

وقال شاب آخر: «من يراهن؟ أنا أقول انها لحية مستعارة ومصنوعة من ذيل الحصان».

www.alkottob.com

قال عباس: «اخجلوا. أتعرفون من أكون؟».

قال الشبان بصوت واحد: «من أنت؟».

قال عباس: «أنا أشهر عالم في البلاد واسمي عباس بن فرناس وأنا الذي اخترع...».

فقاطعه أحد الشبان متسائلاً: «ماذا اخترعت؟ هل اخترعت ذبابة؟».

قال شاب ثان: «لقد اخترع لحية».

وصاح شاب ثالث: «انها لحية ناجحة».

فبادر عباس إلى الابتعاد عن الشبان تلاحقه ضحكاتهم الساخرة، واستأنف تجواله في الشوارع، ولكن خطاه المضطربة القصيرة كانت خطى الأعمى الهارب.

ولما تعاظم جوعه وتعبه، قصد المطعم الذي اعتاد الذهاب إليه كل يوم، ولكن صاحب المطعم قال له: «سدِّد أولاً ما عليك من ديون وإلاّ فلن تأكل ولا لقمة واحدة».

قال عباس: «سأدفع لك بعد أيام».

قال صاحب المطعم: «إذن ستأكل بعد أيام. أما اليوم، فلن تأكل».

قال عباس بصوت خفيض مرتجف خجل: «الجوع يوشك أن يهلكني».

قال صاحب المطعم: «مطعمي ليس مأوى للعجزة، وأنا لست أمك».

فغادر عباس المطعم، وعاد إلى بيته، وهناك وقف أمام

www.alkottob.com

مرآة، وانتحب انتحاباً مراً وهو يحملق إلى دموعه، ثم مسح دموعه، وابتسم ابتسامة المنتصر، وشرع يصنع قنبلة ستدمر الكرة الأرضية، فارتاعت قططه الثلاث، وماءت مواءً حاداً، ففتح عباس باب البيت، فخرجت القطط بسرعة، وقصدت مخفر الشرطة، وأنذرت رجاله بالهلاك القادم، ولكنهم كانوا يجهلون لغة القطط، فطردوها هازئين بموائها، فعادت إلى البيت قانطة، فألفت عباساً ما زال منهمكاً في صنع قنبلته، فتحدثت إليه ورجته الكفّ عن عمله، فضحك عباس، وقال بتشف: «سأصفع من يصفعني».

قالت إحدى القطط: «نحن سنعطيك ما يسعدك».

قال عباس متسائلاً بلهجة هازئة: «وماذا تملك القطط غير المواء؟!».

قالت القطة: «سنعطيك أجنحة فتطير كما تطير الطيور».

قال عباس: «ما هذا الهراء الذي أسمع؟».

قالت القطة: «كفَّ عن صنع القنبلة فنحضر لك فوراً الأجنحة».

قطب عباس جبينه، وتخيّل نفسه غضباً أسود يحوم محلقاً فوق مدائن العالم، فارتعش مغتبطاً، وقال للقطط: «اتفقنا. أين الأجنحة؟».

فنفَّذت القطط ما وعدت به، وأحضرت لعباس ثياباً ذات أجنحة عريضة طويلة، فارتداها بسرعة، وصعد إلى

www.alkottob.com

سطح بيته، وقذف بجسده في الفراغ وهو يحرك الجناحين، فطار منساباً عبر فضاء أزرق رحب.

ابتهج عباس، ونظر إلى أسفل، فرأى مدينته التي ولد فيها صغيرة تتحلق حولها حقول خضر، فغمره حنان جارف مباغت، فانحدر نحو مدينته بلهفة، وحلق فوق بيوتها يرتجف في شرايينه حب عميق ورغبة في بكاء حار.

وبغتة دوى طلق ناري منبثقاً من المدينة، واخترق رأس عباس الذي شهق برعب ودهشة ثم هوى إلى أسفل.

www.alkottob.com